روايات مصرية للجيب

مغامرات س

5

إنهم قادمون

Looloo
www.dvd4arab.com

بهذه البساطة !

قالت لى السيدة (ألفت همام) ، رئيسة تحرير الجريدة الأسبوعية التى أنشر فيها تحقيقاتى على فترات متباعدة :

ـ نحتاج إلى وجودك معنا بصفة دائمة يا (نسرين) ..

قلت مستغربة ما سمعتُه ، بعد أن وضعتُ كوبَ العصير البارد فوق سطح مكتبها الزجاجى :

ـ تعنين ـ ياسيدتى ـ أن أعمل كموظفة منتظمة فى الجريدة ، لا مجرد مراسلة حرة تحت التمرين ؟!

هزّت رأسها بالإيجاب وقالت :

ـ تمامًا ، فرئيس قسم التحقيقات لدينا قدم استقالته منذ يومين ، ونحن فى ورطة حقيقية !

اختلج قلبى بين ضلوعى ، وحاولت ألا أكون خيالية إلى حد السخافة :

ـ وكيف يمكن أن يفيد وجودى فى غياب رئيس قسم التحقيقات يا سيدتى ؟!

رن جرس الهاتف المجاور لها ، فتجاهلته للحظة قالت لى فيها :

ـ لا تتذاكى علىّ يا فتاة ، إننى أعرض عليك أن تسدى الفجوة التى تركها غياب الرئيس ..

رنين جرس الهاتف ..

خفقات قلبى الذاهلة ..

أيمكن أن ... وبهذه البساطة ؟!

السيدة (ألفت) تردف ؛ مادة يدها نحو السماعة :

ـ .. بعبارة صريحة لا تحتمل اللبس ، أنا أعرض عليك رئاسة قسم التحقيقات لدينا إن كان وقتك يسمح بهذا .. آلو ..

رفعت السيدة (ألفت) السماعة وانخرطت فى حوار لم أسمع منه حرفًا ..

بهذه البساطة ؟!

لم يراودنى هذا الخاطر حتى فى أشنع أحلامى جموحًا ووحشية !

أنا رئيسة قسم التحقيقات فى جريدة (الأربعاء) الأسبوعية ولم يمض على تخرجى من كلية الإعلام شهران بالكاد ؟!

أنا ، (نسرين الجبالى) ؟!

غمرنى الشرود وهذا حقى ، وتذكرت بداياتى التى لم أتجاوزها بعد ..

مرت أمام عينى صور شتى ..

أبى (فاروق الجبالى) فى زيه الأنيق المعتاد عندما يستعد للذهاب إلى المستشفى ، يجرى جراحة معقدة أخرى من جراحات المخ والأعصاب ؛ التى اشتهر بها واشتهرت به ..

خطيبى الرائد (هشام القاضى) الذى يوشك رؤساؤه فى المباحث الجنائية أن يمنحوه ترقية إلى رتبة أعلى ، والذى يعمل جاهدًا هذه الأيام على تأسيس عش زوجية سيجمعنا قريبًا ..

صديقاتى وزملائى ..

جيرانى ومعارفى ..

أمى التى لم أرها إذ غادرت الدنيا وأنا لا أزال فى المهد ..

الجناة الذين طاردتهم على مدى عام تقريبًا ..

وجوه بريئة وقاسية ..

رحيمة ومذنبة ..

وظل يغلف كل شيء ..

ظل الرجل الوهم ، الموجود بلا وجود ، والمختفى خلف ستائر العدم السرمدية ، كما يحلو لى دومًا أن أصفه ..

السيد (س) الذى يعرف عنى كل شيء ، والذى أجهل عنه كل شيء كما يحلو لى دائمًا أن أقول حتى فى غير وجود من يسمع ..

أنهت السيدة (ألفت همام) حديثها سريعًا ، ونظرت إلىّ فى تأمل ، وابتسامة ..

ـ ما رأيك ؟!

لم أسمع نفسى إلا وأنا أقول ذاهلة :

ـ و .. إحم .. أعنى .. هل أستحق هذا ؟!

هزّت كتفيها وأجابتنى ببساطة لا أفهمها :

ـ دعى التجربة تقرر بالنيابة عن كلينا ..

ثم وكأنها حسمت أمرى :

ـ .. كونى مستعدة لاستلام العمل فى مكتبك الجديد غدًا ..

خرجت من مكتبها وأنا أسأل نفسى السؤال التقليدى فى موقف كهذا :

« هل أحلم ؟! »

هل تتحقق أكثر الأحلام الوحشية الجامحة .. بهذه البساطة ؟!

لكن سيارة الأجرة التى كادت تصدمنى وأنا أعبر الشارع ، والسباب الذى أطلقه سائقها خلفى ليشمل كل المساطيل الذين يمشون دون النظر إلى الإشارة الضوئية ، والطفل الذى اقترب منى مستعطفًا ليبيعنى علبة مناديل ورقية بسعر زهيد ؛ كل هذا كان يجيب بالنفى ..

إنها الحقيقة التى تشبه حلمًا ، والحلم الذى يتشبه بالحقيقة ، وحياتى التى أحياها رغم كل شيء وأى شيء .. بهذه البساطة !!

* * *

لولو

١

أشياء غريبة تحدث فى قريتى الحبيبة (ميت خميس) هذه الأيام !

أشياء غريبة ، رغم أنها تحدث دائمًا ..

فى القرى الريفية النائية ـ مثل قريتى الحبيبة ـ يقتل التعود الدهشة ، فيغدو الغريب مألوفًا لأنه يحدث تحت عينيك ـ وربما تحت جلدك ـ يوميًا وبصفة دورية منتظمة فى أحيان وغير منتظمة فى أحيان أخرى ، المهم أنه يحدث إلى درجة لا تشعر معها بأن هناك ما يسترعى الانتباه ..

هذه الأشياء يعايشها من ولد ونشأ وكبر فى القرية ، يصبح جزءًا منها ، يتوحد معها ، أما نحن المتمردين الذين خرجنا إلى المدينة لنتعلم ونفهم ، فلا يمكن أن نعود إلى ديارنا الأولى بنفس القناعات التى رسخها الآباء فى أذهاننا ، لا يمكن ألا تثور الأسئلة كالنيران فى أعماقنا الملتهبة إذ نصادف ما يستأهل السؤال ، لا يمكن أن نصمت فى مواجهة ما يتنافى مع مدركات عقولنا الجديدة ؛ التى خرجت من الظلام إلى نور العلم والحقيقة ..

إنها أشياء غريبة ، ولن يفيد تجاهل القدماء لأسئلتنا ،

ولن يفيدهم استنكارهم لسوء الخلق الذى أورثنا التعلم إياه ، ولن تفيدهم محاولاتهم الدءوب فى إرجاعنا إلى حظيرة المشاهدة فى صمت ، أو المشاركة دون رغبة ، ولن تتغير الحقيقة الثابتة التى تناسب ما نراه تمامًا ..

إنها أشياء غريبة !

فى تلك الليلة القريبة ، عندما هبطت من آخر قطار ليلى فى محطة قريتى المتداعية (المحطة لا قريتى التى ستظل أبدًا ـ ومهما تداعت ـ حبيبة !) ، حاملا الحقيبة الثقيلة على كتفى النحيل ، قابلنى عم (سيد أحمد) ناظر المحطة ذو الشعر الأشيب وبذلة العمل الكالحة ؛ بالحروف المطرزة الثلاثة التى تنوى تدريجيًا فوق جيبها العلوى (س.ح.م) ..

أى (سكك حديد مصر) لمن لا يعرف !!

ـ حمدًا لله على السلامة يا (عارف) بك ..

يهوى مداعبتى بقدر ما أهوى أنا التواضع :

ـ لا تنادنى بهذا اللقب يا عم (سيد أحمد) .. هذه الألقاب ألغيت مع الثورة المباركة قبل أن أولد بعشرات السنين ..

ضحك وقال :

ـ لكنها مع هذا تستخدم بكثرة ، أم أنك تفضل أن أناديك بـ (يا دكتور) ؟!

تبسمت وقلت :

ـ لا تستخدم معى أى نوع من الألقاب ، فمهما تعلمت سأظل ابن هذه البلدة البار ..

عبارة مفتعلة نوعًا ، لكن ..

ما الذى فى حياتنا ليس كذلك ؟!

وتركته لأعبر من بوابة المحطة إلى عالم قريتى الحبيبة الصغير ..

شوارع ترابية غير معبدة ، روائح الروث والحقول التى نضجت محاصيلها وأضحت جاهزة لموسم الحصاد ، البيوت ذات حوائط الطوب الأحمر غير المدهون ، والأخرى التى ما زالت تبنى من الطين اللبن ، يبنيها الفقراء والواردون الجدد من كل البقاع المحيطة ، البعيدة قبل القريبة ، ثم هناك الحيوانات والطيور الهائمة على وجوهها فى أمان ، عنزات وحمير ودجاج وبط وقطط وكلاب ، أما البشر فلم أصادف

منهم أحدًا طوال طريقى ، كأن قريتى ـ فى فترة غيابى التى لم تطل كثيرًا ـ قد تحولت إلى أطلال لا يسكنها بشرى ..

مشيت فى الشوارع الغارقة فى الظلمة وقد صافحت الروائح أنفى ..

ولكل شىء فى قريتى رائحة ، وصوت بلا صدى ..

عند الترعة وقفت ناظرًا ومنتظرًا ، وأتانى الهتاف من الضفة الأخرى القريبة ..

ـ انتظرنى لحظة يا دكتور ، أنا آت فى الحال ..

ثم انزلق العم (يوسف) بقاربه الخشبى الصغير ، المربوط فى حبل معدنى محكم يصل ما بين الضفتين ؛ نحو النقطة التى أقف فيها ، وانزلقت أنا بدورى إلى داخل القارب الذى مضى العم (يوسف) فى جره نحو الضفة الأخرى ..

ـ .. كيف حال (مصر) هذه الأيام ؟!

سألنى العم (يوسف) فى الطريق القصير جدًا إلى الضفة الأخرى ، بلهجته الريفية الفحة التى لم تشبها شائبة لهجة أخرى ، وبابتسامة فيها من الحنين ما يفوق الفضول ..

(القاهرة) بالنسبة لسكان الأقاليم المحلية جميعها ليست سوى (مصر) ، و(مصر) ليست سوى (القاهرة) ، وهو ما يدل على فلسفتهم الخفية التى تشير إلى أن العاصمة قد استولت على كل شىء ، المصالح والمبانى والملاهى والاقتصاد ، ولم تترك لباقى الأقاليم شيئًا ، فأصبحت العاصمة دولة ، والدولة عاصمة !

ـ بخير يا عم (يوسف) ، لكنى اختنقت من الزحام ..

الزحام والكلية والمدينة الجامعية ووسائل المواصلات الصعبة والنقود القليلة والملابس البالية وحلم الوصول ، لكنى لم أخبر العم (يوسف) بكل هذا ..

همومه تكفيه وهمومى تكفينى بالتأكيد ..

ـ (مصر) ستظل (مصر) ، فى الماضى كنت أنتهز أى فرصة للنزول إلى شارع (الهرم) والاستمتاع فى أحد الحانات هناك حتى مطلع الفجر ..

ابتسمت وسألته :

ـ والآن ؟!

تنهد ولم يجب ، وهنا سألته من جديد :

ـ .. أين ذهب الجميع ؟! لم أر أحدًا منذ نزلت القرية سوك ـ يا عم (يوسف) ـ وعم (سيد أحمد) .. أعلم أن القرية لا تنام مبكرًا إلى هذا الحد ، إنها لم تتجاوز التاسعة مساءً ..

أجابنى العم (يوسف) مشيرًا بسبابته إلى جهة بعيدة على امتداد الترعة ، بينما اكتفيت أنا من النظر فى ساعة معصمى ذات السوار الجلدى البالى :

ـ هل نسيت يا دكتور ؟! الليلة مولد السيد (خميس) !!

نظرت إلى حيث يشير ، ودارت فى أعماقى امتعاضى ورغبتى فى الخلاص الذى لا يجىء .. تبًا للجهل ..

بعد دار العمدة بحقلين (يملكهما العمدة وزوجته) ، وعلى تبة صخرية مرتفعة يقع المقام الذى عن صاحبه يتحدث العم (يوسف) ، يتناثر حول هذا المقام المريدون والخدم الذين يضعون على أنفسهم ثيابًا قديمة متسخة ومرقّعة ، ويرددون الهتافات الخرقاء ويقيمون حلقات تدق فيها الطبول وتبذل فيها العطايا بلا حساب ، هناك يرنو إلى صاحب المقام وإليهم ـ الخدم والمريدين ـ البسطاءُ من أصحاب الحاجات الذين يأملون أن تتحقق ، يتمنون أن يحققها لهم السيد (خميس) الذى مات من سنين بعيدة ، ماتحًا قريته اسمه الذى اقترن باسمها ، والكثير من الخزعبلات التى لا تنتهى !

تبًا للجهل مرة ثانية ..

الأساطير تروى أنه كان مباركًا ، أى أن البركة كانت تلازمه أينما سار وحلّ ، والبركة مصطلح يشير إلى سلسلة من المعجزات الوهمية التى كان ذلك الرجل المعروف باسم (خميس) يمارسها ، منها نومه على سرير من المسامير ، ومنها سيره على صفحة الماء ، ومنها سحابة كانت تظلله أينما سار ، ومنها أنه كان بمقدوره رد الغائب ، وجلب الحبيب ، ومعرفة ما سيحدث قبل أن يحدث ، وسلسلة أخرى من القدرات التى حاشا لبشرى أن يمتلكها من دون إرادة الله ـ عز وجل ـ ..

تبًا للجهل آلاف المرات ..

دمدمت بها فى سرى وأنا أدلف إلى منزلنا الحقير المتواضع على أطراف البلدة ، استقبلتنى أمى بالترحاب وهلل إخوتى الصغار لمرآى ، تناولنا عشاءً فاخرًا ـ بالنسبة لمن هم مثلنا ـ مكون من الفطير والبيض والجبنة القريش والزيتون ، وبعد جلسة لم تطل ارتدت أمى جلبابها الأسود ..

ـ إلى أين ؟!

سألتها رغم كونى أعرف الإجابة ..

ـ إلى السيد (خميس) ، الليلة ليلته والبركة بركته ..

ومضت على الفور دون انتظار أن تسمع منى ما تسمعه كل عام ، منذ نزحت إلى (القاهرة) لدراسة الطب وأنا أعترض وهى لا تسمع ، تفعل ما تفعله منذ مات أبى وأنا لم أزل طفلاً صغيرًا ، وما كان يقوم به هو نفسه قبل أن ينتقل إلى جوار ربه ، الحضور وهزّ الرأس على دقات الطبول والهتاف حتى تتمزق الحنجرة ، ثم ...

لا شىء ..

تمر الأيام ولا تتحقق الأمانى ولا تتحسن الأوضاع ، ويتم تأجيل كل شىء إلى الاحتفال القادم بمولده فى العام التالى ..

نام الصغار ، وانبعثت الدقات العالية من جهة دار وحقول العمدة ، وأنارت تلك الجهة البعيدة بالأضواء الكهربائية التى يحرص العمدة بنفسه على تعليقها حول المقام ، مع استئجار مولد خاص ذى طاقة عالية لها ، دافعًا النفقات فى كل عام من جيبه الخاص ، إنه أول المستفيدين من تخدير الفقراء بالأوهام ، وهو آخر المستفيدين بالهبات التى يتركونها حول المقام من ثروات نقدية أو عينية ..

أمى تعمل من أجل إطعام الصبية ، ومن أجل تعليمى ، وتلقى بما تدخره سرًا على أعتاب المقام طلبًا لبركة لا تحل أبدًا ، ورغم كل الشجارات التى افتعلتها معها فى الأعوام السابقة ظلت مصرة على موقفها ، ثابتة على ما تعتقد ..

يذكرنى هذا كله بقصة للدكتور (يوسف إدريس) لا أذكر عنوانها ، لكنى أذكر أنها كانت ضمن مجموعته القصصية (حادثة شرف) ، تروى عن وهم (المبروك) الذى لم يكن كذلك فى النهاية ، كان بطلاً من أبطال مقاومة الحملة الفرنسية خلد الفلاحون ذكراه حتى تحولت على مر الأيام إلى أسطورة غير قابلة للمساس ..

تجاهلت هذه الخواطر كلها وأنا أجلس للاستذكار قليلاً ، فالمرارة التى انتشرت فى حلقى أطارت النوم من عينى وإن ظل الإرهاق والتعب ، نظفت نظارتى وأنرت المصباح الصغير القذر فى سقف حجرتى الضيقة ، أخرجت كتاب (النساء والتوليد) الضخم من حقيبتى ، الامتحانات اقتربت ولا وقت لرفاهية النوم الطويل أو التأمل فى حال لن يتغير ، والتأجيل أو الرسوب خياران ليسا فى الحسبان ..

أدرت المذياع الصغير على محطة (صوت العرب) لكى تؤنسنى قليلاً ، وانخرطت فى المصطلحات اللاتينية التى تفرق بين أنواع الإجهاض المختلفة ..

حتى حدث كل شىء فجأة ..

انطفأ المصباح الصغير القذر (الذى يعمل بالكهرباء) وصمت المذياع (الذى يعمل ببطارية جافة) معًا فى نفس اللحظة !

صدفة غريبة ؟!

لا .. الأمر أغرب من أن يكون مجرد صدفة ..

رفعت ساعة معصمى ذات السوار الجلدى المتآكل أمام عينى فى الظلام ، العقارب الفوسفورية الثلاثة تشير إلى ما قبل منتصف الليل بقليل جدًا ، غير أن عقرب الثوانى الطويل الرفيع متوقف بدوره !

صدفة غريبة أخرى ؟!

نهضت متحاشيًا التخبط فى الظلام حتى لا أوقظ الصبية النائمين ، اتجهت نحو باب الدار المتهالك وفتحته ، ووقفت عند العتبة أراقب المنظر بعينين يأكلهما الذهول ..

الضوء الآتى من جهة دار العمدة (حيث المقام والمولد والناس المتجمعين) قد أصبح وهجًا أبيض شديدًا ، لا يمكن أن ينتج عن مصابيح صغيرة معلقة تسرى إليها الكهرباء من مولد على الطاقة ، بل هو كتلة واحدة أشبه بوميض متمدد ، أما الصوت ، فكل ما حولى كان ساكنًا كأننى فى أول الخليقة ..

هناك شيء ما يحدث هناك حتمًا ، شيء غريب لا أعرف كنهه ..

انطلقت أهرول نحو تلك البقعة التى أعرف مكانها جيدًا ، كنت أعدو بكل طاقتى وألهث فى قوة ، خائف كنت على أمى التى لم يبق لى ولإخوتى سواها ، (الأدرينالين) كان بحرًا هائجًا فى دمائى ، حتى ..

أظلمت الدنيا فجأة أمام عينى قبل أن أصل إلى غايتى المنشودة ..

فى اليوم التالى أفقت عندما أشرقت الشمس ، كانت أمى بجوارى تضع كمادات باردة على جبهتى الراشحة بالعرق الساخن ، حمى ونيران تلتهم رأسى ومخى ..

ـ ما الذى حدث ؟!

سألتها فى وجل ، فأجابتنى باسمة فى هدوء :

ـ لا شيء .. كنت تعدو وتعثرت فى صخرة ، لكن السيد (خميس) حماك ببركته !

سألتها وأنا ألهث ، كأنى ألفظ آخر أنفاسى :

ـ ما الذى حدث البارحة عند المقام ؟!

تحدثت أمى بنشوة لم أعهدها فى نبراتها عبر سنين حياتى الماضية جميعها :

ـ طاقة من الضوء انفتحت فوق المقام بالأمس .. ضوء مبهر ..

والتمعت عيناها إذ أكملت :

ـ .. يقولون أن هذا هو النذير بتحقق الأمنيات جميعها ..

كأنما لدغنى ثعبان قفزت من فوق فراشى المبتل ، وضعت قدمى فى خفى وانطلقت أهرول بينما أمى تتابعنى بنظرات غير فاهمة ، لكنها مستسلمة ، لم تحاول إيقافى أنا الذى يشتعل جسدى بالسخونة (مرض ؟!) ..

انطلقت أهرول مثلما حدث بالأمس ، منتبهًا حتى لا أتعثر وأسقط ، حتى بلغت دار العمدة الذى بدا كقبر خال من الناس ، كما بدت القرية كلها التى سهرت ليلتها بجوار المقام ، حيث حدثت معجزة التجلى كما قيل !

تجاوزت دار العمدة راكضًا نحو المقام ، هرولت عبر الحقلين اللذين يفصلان المقام عن الدار ، حتى توقفت أمام المقام مذهولاً ..

المبنى المكعب الكالح الطلاء ما زال كما هو ، لكن حديد القضبان الموضوع على النافذة الوحيدة ، هذا الحديد ذائب منصهر ، معاد تشكيله !

انهرت على ركبتى وأنا أرى ما أرى ، لكن هذا لم يكن كل شىء ..

فعلى البعد حيث الحقل الذى يطل عليه المقام من الجهة الأخرى (وهو من حقول زوجة العمدة أيضًا) كان حقل القمح يخرج لى لسانه بما يعجز الوصف عنه ، ليس هناك إلا كلمات لا تحمل هول الموقف :

ـ مثلث متساوى الأضلاع تقريبًا ، مفرغ وممتد على اتساع وخالٍ من السنابل ، فى منتصف الحقل تمامًا !

عارف فكّار

* * *

٢

وضعت الأوراق المكتوبة بخط النسخ الجيد على مكتبى الجديد فى قسم التحقيقات بالجريدة ، وتراجعت بظهرى ـ كما يليق برئيسة قسم حديثة السن والخبرة تحاول التظاهر بالعكس ـ متأملة فى الشاب الأسمر ذى الشعر الخفيف الجالس أمامى ، المرتدى قميصًا من القطن الرخيص ، بأزرار مغلقة حتى نهاية الياقة العلوية ، والذى ينظر إلىّ من وراء نظارته القديمة فى أمل متطلع ..

ـ ما رأيك يا أستاذة (نسرين) ؟!

أعجبنى اللقب لكنى حاولت تجاهله ، وأنا أتنحنح ناظرة إلى الأوراق أمامى :

ـ فى الحقيقة يا (عارف) ، لا أدرى ماذا أقول ..

تعمدت ألا استخدم لقب (دكتور) الذى قدم نفسه به عندما دلف إلى مكتبى ، كأول صحفى جديد أقابله بصفتى الجديدة ، بعد يومين فقط من تولى المنصب / الحلم ..

بهت لقولى ، وغاضت البسمة على صفحة وجهه القروى وهو يقول :

ـ ماذا تقصدين ؟!

حاولت أن أزف إليه ما أقصده بأقل قدر من الألم :

ـ أنت تدرس الطب .. أليس كذلك ؟!

ـ بلى ..

ـ وما الذى دفعك إلى التفكير فى اقتحام عالم الصحافة ؟!

عرف أنى أناوره ، نكى هو ، والذكاء هو الذى دفعه لمجاراتى رغم عدم نجاحه فى مداراة ضيقه من كل ما يجرى دون توقع منه :

ـ هواية .. أنا من عشاق القراءة والكتابة !

قلت كأنى ألقى محاضرة على شخص مستعد للسماع :

ـ الكتابة عالم واسع ، والصحافة جزء منه .. وأنت كما لاحظتُ أميل للكتابة الأدبية من الصحفية ، إن لكل عالم قواعده كما لا تجهل بالتأكيد يا (عارف) !

ضيق عينيه خلف نظارته ، وقال :

ـ بالفعل ، كما لا أجهل أيضًا أن هناك من يستطيعون كسر القواعد بين الحين والآخر ، أو لنقل مزجها ـ على سبيل التخفيف ـ بين الحين والآخر ..

استطعت فهم تلميحه ، إنها لعبة شطرنج حوارى إذن :

ـ بالفعل ، لكن ليس فى بداية الطريق يا عزيزى ..

لم يجد حلاً أفضل من المباشرة كما هو واضح :

أنت قطعتها فى أول الطريق يا أستاذة (نسرين) ..

لوحت بسبابتى ورسمت على وجهى بسمة أسخف من قدرتى على اصطناع السخافة :

ـ الاستثناءات ليست قواعد ، وأنا لست قاعدة !

حاول أن يقول :

ـ لكن ...

غير أنى قاطعته على الفور مشيرة إلى الأوراق التى أمضى وقتًا فى كتابتها :

ـ هناك مشكلتان فيما قرأته الآن ، أولهما أننى لا أستطيع تصنيف ما قرأت ، إنه ليس خبرًا وليس تحقيقًا وليس تقريرًا وليس مقالاً وليس قصة قصيرة وليس رواية ، إنه وسيط مختلف لا يمكن وضعه فى أية خانة مما ذكرت ..

نظر إلىّ نظرة طويلة وأنا أتحدث ، وانتهز فرصة التقاطى لأنفاسى ؛ ليقول :

ـ هذا كان مقصودًا ..

تابعتُ طلقاتى كأنه لم يقل شيئًا :

ـ المشكلة الثانية هى فى غياب وضوح الموضوع ، إنك تتحدث عن نفسك وقريتك وتاريخك العائلى أكثر مما تتحدث عن صلب الموضوع الذى من أجله جلست وأمسكت بالقلم لتكتب ، لقد ضاع الهدف منى وأنا أقرأ لأجده فى آخر السطور أو بينها !

نظرة طويلة أخرى ، وعبارة من بين الأسنان :

ـ هذا أيضًا كان مقصودًا ..

انعقد حاجبى وأنا أنظر نحوه فى استنكار :

ـ مقصود ؟! هل تعنى حقًا ما تقول ؟!

هتف فىّ بنبرة جمدتنى فوق مقعدى :

ـ دعينى أوجه لك أنا هذا السؤال ، هل تعنين حقًا ـ يا أستاذة (نسرين) ـ ما تقولينه ؟! هل تقولين أن عيوب كتابتى الصحفية هى كل مزايا كتابتك الصحفية ؟! إنك تكتبين تحقيقاتك بنفس الأسلوب الذى كتبت به هذا الذى لا تستطيعين تصنيفه ..

غمغمت كالمغيبة :

ـ لا يجب أن تقلدنى ، هذا سيضرك فى بداية الطريق !

تجاهل قولى ، وربما لم يسمعه من الأصل فى السعير الذى يحترق فيه كنتيجة حتمية لكلماتى السابقة :

ـ إنك تكتبين كأنك تكتبين مذكراتك الشخصية ، أنا قارئ جيد لمقالاتك وأحتفظ بها جميعها ، وهى تحوى عن حياتك الخاصة أكثر مما تحوى مذكرات (أنور السادات) عن حياته الشخصية فى رحلته نحو «البحث عن الذات !»

لم أفهم إن كان يقرظنى أو يهجونى ، غير أنه تابع فى حماس مر :

ـ .. أعرف كل شىء تقريبًا عن أبيك الجراح وأمك التى ماتت وأنت صغيرة وخطيبك العصبى الغيور وصديقاتك الجامعيات ، وعن السيد (س) بالطبع ..

ارتج علىّ للحظات ، لم أحر فيها جوابًا ..

نظرات فقط ، واجمة من جانبى وكارهة من جانبه ، حتى انفكت عقدة لسانى أخيرًا :

ـ لكل صحفى ظروفه الخاصة ..

قال فى عناد :

ـ أريد أن أعامل على أننى صحفى له ظروف خاصة ، أم أن للوساطة هنا دورها الذى لا يمكن إغفاله كما لا يمكن إغفاله فى أى مجال آخر غير الصحافة ؟!

إنه يلعب على وتر حساس أحاول تجاهله منذ أول لحظة دلفت فيها إلى بلاط صاحبة الجلالة ، وتر اهتز فدفعنى للهتاف العصبى :

ـ لا أستطيع أن أدخل لرئيسة التحرير بأوراق كالتى كتبتها ، إنها مجرد كلمات بلا صور تساندها ، مجرد قصة طويلة لطالب طب عاد لقريته وفوجئ بظواهر غريبة تحدث فى ليلة واحدة ، ظواهر بلا تفسير يساندها ، حتى لو اعتبرناها قصة من وحى الواقع فهى قصة مبتورة لم تكتمل !

نجحت فى تحويله إلى موقع الدفاع :

ـ يمكن أن تكون هذه بداية لسلسلة من التحقيقات حول ظواهر الـ ...

قاطعته بضحكة متهكمة ـ يا لى من شريرة ـ قبل أن أقول :

ـ سلسلة من التحقيقات مرة واحدة ؟! أول ما شطح نطح ؟!

انكمش على نفسه وقد أدرك المأزق الذى هو فيه ، فنظر إلى أوراقه بينما انطلقت أنا أتابع :

ـ .. البداية لا يجب دائمًا أن تكون قنبلة ، إن ظاهرة غريبة تحدث فى قرية ريفية لهى فكرة ملهمة بحق ، يمكن أن نخرج منها بقصص كثيرة وخيوط لا حصر لها ، ضع نصب عينيك كلمة واحدة هى المصداقية ، ثم اسأل نفسك : من يمكن أن يصدق أمرًا كهذا الذى كتبته ؟! وميض ليلى ومعدن ذائب ودائرة فى منتصف حقل ومقام لرجل مبارك .. خيوط غير منسجمة ، لسنا فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى يستسيغ القارئ أمرًا كهذا ..

قال (عارف فكّار) وصدره يعلو ويهبط ، كثور سقط أمام المصارع العنيد :

ـ كل ما دونته حدث ، أنا لم أختلق هذه القصة يا أستاذة ..

هززت رأسى فى سماجة أحسد عليها ، وقلت :

ـ لنفترض هذا ، ما الدليل ؟! لا يوجد ، أين التفاصيل ؟! لا توجد ، أين التفسير ؟! لا شىء ، إذن فالقصة انتهت من قبل أن تبدأ ..

نهض واقفًا ، ومد يده منتزعًا كومة الأوراق من فوق سطح المكتب ، وبمنتهى السرعة وعدم الانسجام العصبى ـ العضلى رفع حقيبته الكالحة وفتحها ليدس داخلها الأوراق ، ذكرتنى الحقيبة بحقيبة (تشيكوف) التى تحدث عنها (محمد المخزنجى) فى قصته الجميلة (حقيبة بلون الشفق والرمل) ، لابد أنه كان يتحدث عن حقيبة مشابهة لهذه ، حقيبة تثير فى النفس الكثير من الأفكار والمشاعر ، لكن هذا ليس موضوعنا بالتأكيد كما هو الحال دائمًا !

ـ ليكن ..

هتف بها فى احتداد ، ثم أردف :

ـ .. سأعود إليك بكل هذا ، التفاسير والتفاصيل والصور ..

وحدجنى بنظرة كراهية صريحة قبل أن يتابع بعد هنيهة من الصمت والتحدى :

ـ .. يبدو أننى تسرعت كثيرًا بالفعل ..

ثم استدار وغادر المكان وهو يكاد يصطدم بكل ما حوله ، بينما أخذت أنا أفكر :

يا لهؤلاء الشباب المتسرعين الذين يريدون كل شيء في لمح البصر !

مضى اليوم وأنا أراجع أوراقًا وأصحح كلمات وأختصر عبارات وأمارس عمل الصحافة المكتبي المرهق ، زارني (تامر فوزي) زميل الدراسة وهنأني بالمنصب الذي لم يكن قد سمع بتبوئي له ، وأعطاني نسخة من سيناريو سينمائي معروض عليه دور أساسي فيه ، طبعًا كان يريدني أن أنشر الخبر - خبر اختياره لبطولة فيلم كهذا - دون أن يطلب مني ذلك مباشرة ، قال إنه يعطيني السيناريو ليعرف رأيي فيه كاستشارة خاصة ؛ وإن كان يتوجب عليه أن يوافق على الدور أم لا ، وعدته بقراءته في خلال أسبوع والرد عليه بعدها ، ولم أكن أعلم بالطبع أن هذا السيناريو سيكون بطل مغامرتي القادمة مع السيد (س) نفسه ..

دعك مما سيحدث ولنعش اليوم بيومه ، غادر (تامر) وعدت أنخرط في عملي ، حتى مر عليّ (هشام) في موعد انتهاء العمل المتفق عليه ، سرنا إلى شقتنا الجديدة التي يتم تجهيزها في (مدينة نصر) وألقينا نظرة على سير العمل ، سيستغرق التجهيز بضعة أسابيع أخرى ، نكون بعدها جاهزين للزواج ، وننتقل بعلاقتنا من مرحلة الشجار عبر الهاتف في فترات متباعدة إلى الشجار على الهواء مباشرة في عرض شبه مستمر !

أقلني (هشام) إلى المنزل بعد أن تجادلنا إلى حد الاختلاف على لون دهان غرفة النوم ، وعلى نوع مزاليج الأبواب ، وعلى شكل باب الشقة الخارجي ، وهبطت من السيارة حامدة الله على انتهاء اليوم على خير !

الساعة الآن السادسة مساء ، وسيارة أبي رابضة أمام البناية ..

هذا مبشر ..

صعدت على الفور وعانقته ، وعدته بوجبة ما بين غداء وعشاء رائعة ، وعندما جمعتنا مائدة الطعام تجاذبنا أطراف

الحديث ، وروى لى أبى بعضًا من أحداث يومه الروتينية فى المستشفى ، لكن قصة واحدة استوقفتنى فتركت الطعام لأصغى باهتمام غريب ..

وعلى الفور أنبنى ضميرى وأنا أتذكر الفتى الذى نسيت عنه وعن قصته كل شىء بمجرد خروجه من مكتبى ..

(عارف فكّار) !

* * *

٣

هكذا الأمر بكل بساطة يا صغيرتى (نسرين) ..

منحتُ الطب حياتى ، فمنحنى آلامًا مزمنة فى الظهر ، ودوالى فى القدمين ، وإجهادًا للعينين ، وشيبًا قبل الأوان ، وابنة لا أراها إلا قليلاً !

دائمًا فى المستشفى التى أنفقت العمر لكى تحمل لافتتها اسمى ، فى غرفة التعقيم ، فى غرفة العمليات ، فى غرفة الفحص ، فى قسم الطوارئ ، فى العناية المركزة ، أمر بين الأسرة لتفحص النزلاء ، فى ندوة مع الزملاء حول حالة نادرة تستدعى أخذ أكثر من رأى ، فى مكتب المدير ـ الذى هو أنا ـ أراجع الميزانية أو أوقع كشف رواتب الشهر ، دائمًا هناك حتى فى المناسبات والأعياد ؛ تلك التى لا أتذكرها إلا عند طلب أحد العاملين لإجازة لا يحصل عليها إلا بعد جدال طويل وإلحاح مستمر ..

أقدس العمل ، وأجد فيه متعة التفانى فى شىء ، أو التماهى مع شىء ، بصرف النظر عن ماهية هذا الشىء ، وأريد أن يكون جميع من حولى مثلى ، بل إننى أعاملهم على هذا الأساس بالفعل فأظلمهم وأظلم نفسى أحيانًا ..

يقولون ـ وفى قولهم بعض الصحة التى لا أنكرها ـ أننى لم أكن كذلك قبل وفاة (سعاد) زوجتى ووالدتك يا (نسرين)، يا بنتى الوحيدة، وأن انخراطى فى بوتقة الانشغال المستمر ما هو إلا نوع من التعويض ..

أو الهروب ..

دعيهم يقولون، فلو أعطينا أذنًا لكل قائل لمضى العمر قبل أن نجد فرصة للرد ..

اليوم كان مختلفًا بعض الشىء، كنت جاهزًا لأن أستقبل الذين استجابوا للإعلان المنشور قبل بضعة أيام فى الجريدة اليومية واسعة الانتشار، وفى هذه الجريدة بالذات أنشر دائمًا إعلانات المستشفى ضمانًا لوصولها إلى أعرض قطاع من القراء ..

كنا فى حاجة لبعض الأطباء الشبان للمساعدة فى بعض الأعمال البسيطة التى لا يجد كبار الجراحين وقتًا لها، لم أشترط الخبرة وإن كانت الأفضلية لمن يملكها بالطبع، لم أشترط تخصصًا معينًا وإن كانت الأفضلية لجراحة المخ والأعصاب بالطبع، لم أشترط أكثر من أن يكون الطبيب شابًا طموحًا، تاركًا الفرصة مفتوحة للجميع، وتاركًا نفسى للتيار حتى أجد الأفضل، وأنا دائمًا لا أرضى سوى بالأفضل ..

وكان التدفق ..

توقعت أن يكون عدد المتقدمين كبيرًا، لكن عدد المتقدمين فاق توقعاتى، ومع هذا تصديت مع عدد من الزملاء المتحمسين المتطوعين لمقابلة جميع من تقدموا، ومنح الفرصة لكل من يريدها ..

أحب مقابلة الشباب، أحب التواصل معهم، ربما كان هذا يجدد طاقاتى التى تزحف معى نحو الشيخوخة فى ثبات، لكنى أظن أن فى الأمر ما يتجاوز هذا بقليل ..

ربما كانت المسألة تواصلا مع الأجيال، حنين إلى رؤية النفس فى مرآة الماضى أيا كان المرء مفعمًا بروح الرغبة فى تغيير العالم، الجسر الذى يصل بين عالمين من البشر العاملين فى نفس المجال، أحدهما عند بوابة الوصول والآخر عند بوابة المغادرة، ربما كانت المسألة أى شىء، إلا أننى لا أنكر استمتاعى بكل لحظة من هذه اللقاءات المختصرة .. تعرفين يا (نسرين) ـ أو لعل فطنتك قد هدتك ـ إلى ما يحدث فى هذه المناسبات التى لا تتكرر كثيرًا، مكالمات كثيرة من زملاء ومعارف وتوصيات لا حصر لها، بطاقات نسيت أسماء أصحابها وإن كانت مناصبهم بارزة النقش فى صلابة، تتحداني وترجونى أن أهتم بفلان على حساب علان، جاملت من حادثنى بالهاتف مؤكدًا أننى سأفعل، ولم أكسر خاطر من

أرفق بسيرته الذاتية بطاقة أو رسالة ، لكنى نحيت كل ذلك جانبًا وقررت أن أكون حياديًا تمامًا ، لن تشفع وساطة لأحد ما لم يكن يستحق الوظيفة عن جدارة ، ولن يأخذ أحد مكان أحد ما لم يتجاوز المقابلة المعقودة بنجاح ..

لست مثاليًا بقدر ما أخاف على مستشفاى ، وسيضار المستشفى بالتأكيد لو جاء من لا يستحق ليأخذ مكان من يستحق ، هذه معادلة النجاح البسيطة المفروغ منها ..

صادفت كوارث طبيعية بلا حصر طبعًا ، بدءًا من تلك الطبيبة التى تتحدث الإنجليزية بطلاقة تضارع لغتها الأم ، فى الغالب هى من خريجى مدارس اللغات وربما كانت نشأتها فى الغرب من الأصل ، هيئتها مقبولة جدًا وهى ساخطة على كل شىء فى البلاد ، لكنها لا تعرف رقم منطقة الذاكرة فى المخ البشرى ، وهى جريمة لا تغتفر فى وجهة نظرى ، وانتهاء بذلك الطبيب حديث التخرج الذى أنهى سنة امتيازه بالكاد دون أن يعاين مريضًا واحدًا !

كوارث طبيعية بلا حصر ، حصل أصحابها على الرفض القاطع من بداية اللقاء ، وفى المقابل بالطبع كان هناك الكثير من المفاجآت السارة التى ينشرح لها قلب طبيب عريض الخبرة مثلى ..

أسفرت هذه المفاجآت عن اختيارى ـ بعد استشارة الزملاء طبعًا ـ لسبعة من الأطباء الأكفاء بالنسبة لأعمارهم ، استغرق هذا طبعًا الكثير من الوقت والجهد ـ أشفقت طبعًا على لجنة تحكيم برنامج (سوبر ستار) ! ـ لكن النتيجة كانت مرضية للجميع وأولهم أنا ..

دعينى يا (نسرين) أقص عليك أغرب ما صادفته من متقدمين ..

كان هذا بعد استراحة الغداء التى استغرقت خمس دقائق على الأكثر ، وأنا فى المعتاد لا أتناول غدائى قبل الخامسة تقريبًا ، أى أن الوقت كان قبل الغروب بقليل ..

كان شابًا أسمر البشرة ريفى الملامح ، يرتدى ملابس كلاسيكية تنم عن تواضع حالته ، وإن كانت عيناه تشعان بذكاء غريب ، ذكاء مقهور !

جلس أمامى وحياتى بتحية عربية كاملة ذات نطق يليق بمسلسل رمضانى تاريخى :

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

حييته بالمثل ، أغلق باب الغرفة خلفه ، تقدم إلى المقعد

الشاغر المواجه لمكتبى ، جلس فى اتساق ، وضع حقيبته الكالحة بين فخذيه وأخرج ملفًا من البلاستيك وضعه أمامى فوق المكتب ، لم ينطق حرفًا وهو يفعل ، ولاحظت تشقق أظافر يديه وبروز العروق الزرقاء فيها ..

نظرت إلى اسمه ومختصر سيرته الذاتية نظرة سريعة ، إنه مواليد (الدقهلية) من قرية تحمل اسمًا يبدأ بـ (ميت) التى لا أعرف لها معنى ، خريج حديث من كلية طب (القاهرة) ، لم يتخصص بعد ، وإن كان قد أمضى سنة من سنوات التكليف الريفية التابعة لوزارة الصحة .. ضيقت عينىّ وأنا أتابع بقية التفاصيل فى ورق السيرة الذاتية الذى لم يكن سيئًا أبدًا ، هل شحبت الإضاءة فى مكتبى فجأة أم أنها مشاكل النظر المصاحبة للتقدم فى السن ؟!

رفعت ناظرى المجهدين إليه ، كان يحدق فىّ بثبات كأنه تمثال لا يتحرك ولا يتنفس حتى ، فابتسمت قائلاً :

ـ خريج بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف ، هذا رائع يا دكتور (عاصم) !

(عاصم الفرماوى) هو اسمه ، هل قلتها مسبقًا أم أننى قد نسيت ؟!

ـ أشكرك ..

قالها وصمت ، فعرفت أنه قليل الكلام ..

ـ هل أنت طموح ؟!

سألته وأنا أشبك كفى متأملاً فيه ، فأجاب ونظراته الحادة ـ التى تشبه نظرات (كارى) فى فيلم (دى بالما) الشهير ـ تسبقه :

ـ أعتقد هذا ..

ـ ما هو المبلغ الذى تتوقع أن ندفعه لك شهريًا ؟!

ـ لا أعرف ..

كأنها مباراة (بنج بونج) !

هكذا وجهت إليه سؤالين بسيطين فى علم المخ والأعصاب neurology البسيط ، أجاب عن واحد إجابة مقتضبة غير وافية والآخر لم يجبه وظل يحدق فىّ بنفس النظرات التى بدأت أشعر بأنها غير مريحة ، كان معنى هذا أن فرصته فى الحصول على الوظيفة ضعيفة نوعًا ، وقد أخبرته بهذا فى وضوح :

ـ فرصتك فى الحصول على الوظيفة ضعيفة نوعًا ..

هزّ رأسه فى تثاقل وقال :

ـ كنت أتوقع هذا ..

لو كان أكثر انفتاحًا لربما فكرت فى تعيينه ، لكنى أخشى على النزلاء من معاملة جافة سيتلقونها منه بالتأكيد ، إن هؤلاء الرقيق الحال يعملون بجد ، لكنهم يتواصلون بصعوبة ، وأنا أتمنى أن أساعده لكن ليس على حساب عملى ..

قلبتُ فى ملف السيرة الذاتية أمامى ، وبعد انتهاء الأوراق البيضاء التى تحوى سطور التعريف ، وجدت ما أثار دهشتى قبل انتباهى :

ـ ما هذا ؟!

تساءلت وأنا أحمل نسخة من مجلة ـ أمريكية غالبًا ـ تحمل رسمًا طفوليًا نوعًا ، وثلاثة حروف بارزة لا أجهل معناها بالتأكيد ..

ـ .. UFO !

نقطت بها فى استغراب عارم ، كان منشؤه الأساسى أن أجد مجلة كهذه مع هذا الشخص بالذات !

تنحنح ومد يده معتذرًا لكى أناوله المجلة :

ـ إحم .. عذرًا ، يبدو أنها تسللت داخل الملف دون أن ألاحظ ..

لم أناوله إياها على الفور ، وإنما لوحت بها باسمًا :

ـ هل تستهويك القراءة فى هذه الموضوعات ؟!

ظل مادًا يده يسألنى أن أناوله إياها ، وهو يهز رأسه ويقول فى اقتضاب مفعم بالحرج :

ـ نوعًا ما ..

قلبت فى صفحات المجلة كأن اللعب بأعصابه يستهوينى ، وأنا أقول بنفس البسمة :

ـ وأنا فى مثل سنك كنت أحب القراءة فيها أيضًا ، الأطباق الطائرة أو الأجسام الطائرة المجهولة الهوية ، أو الـ Unidentified Flying Objects !

حاول أن يبتسم ولم يفلح ، وهو يقول كأنه يجارينى حتى أناوله المجلة على الفور :

ـ نعم .. نعم !

لم أدر ما الذى جعلنى أسأله :

ـ هل تؤمن بهذه الأشياء حقًا يا دكتور (عاصم) ؟!

سألنى وقد بلغ التوتر منه مبلغه :

ـ أيّة أشياء ؟!

واصلت التقليب فى المجلة وتفسير السؤال :

ـ الوجود الحقيقى لسكان الكواكب الأخرى ، ومحاولاتهم الاتصال بسكان الأرض عن طريق الأطباق الطائرة واحتمالات وجود حضارات عاقلة فى الفضاء الخارجى إلى آخر هذه الأمور التى لم تحسم بعد ..

صمت قليلاً حتى إننى خلته لن يرد ، غير أنه رد فى النهاية بلهجة لم تخل من اضطراب :

ـ ولن تحسم أبدًا ..

كان رده غريبًا ، فتركت المجلة بصورها ونظرت إليه متسائلا فى هدوء يليق برجل علم :

ـ ولماذا لن تحسم ؟!

كان رده التالى أكثر غرابة :

ـ إنهم يجيدون إخفاء آثارهم جيدًا !

سؤال آخر :

ـ ماذا تعنى ؟!

جواب آخر وأخير :

ـ لا أعنى شيئًا ..

ثم إنه مد يده مطالبًا بمجلته فى صمت ..

هذا الفتى إما متابع جيد لحلقات (ملفات إكس) التى أثرت فيه إلى حد بعيد ، وهو ما يتنافى مع مظهره مرة أخرى ، وإن كان لا يتنافى مع طبيعته الغريبة ، وإما أنه مؤمن بالفعل بما يقول وهذا أكثر غرابة !

ـ إجابتك تحمل أحد معنيين ..

قلتها وأنا أضع المجلة أمامى فوق ملف السيرة الذاتية ، قبل أن أفسر قائلاً :

ـ .. إما أن زوار الأرض من الفضاء الخارجى يجيدون إخفاء آثارهم جيدًا ، وإما أن جهة ما تجيد إخفاء آثار هؤلاء الزوار ..

صمت وسمعت صوت أنفاسه بوضوح ، قبل أن يقول باقتضابه المعهود :

ـ لا فارق فى رأيى ..

مرة أخرى ، لم أدر ما الذى جعلنى أسأله :

ـ تتحدث كأنك قد تعرضت لتجربة شخصية فى هذا المجال يا دكتور (عاصم) !

كما تتوقعين فقد صمت طويلاً ، لكنك لن تتوقعى أبدًا ما حدث بعدها ..

لقد نهض أمامى ، وخلع قميصه الكلاسيكى ، وعلى صدره ـ بالتحديد أكثر فى تلك المنطقة ما بين الصدر والبطن ـ رأيت منظرًا شنيعًا ، ليس أشنع ما رأيت بحكم عملى لكنه منظر لا يحمل تفسيرًا على الأقل !

كان شكلاً هندسيًا ، مثلثًا كالوشم المصنوع بوساطة الكى بالنار فوق الجلد المشدود ..

هالنى المنظر وعقد لسانى للحظة ، بينما استمر (عاصم) يحدق فىّ بعينى (كارى) الواسعتين ، وهو يقول بلهجة عميقة تناسب دراما الموقف الغريب :

ـ إنهم .. قادمون !

* * *

كنت قد فقدت شهيتى للطعام تمامًا مع اندماجى فى القصة التى رواها أبى ، بينما استمر هو فى تناول طعامه كأن الرواية قد انتهت !

لم أجد ما يقال للحظة لكنى فى النهاية تساءلت فى ذهول :

ـ هل حدث هذا حقًا يا أبى ؟!

ابتسم وهو يقول فى تهكم :

ـ موقف طريف وغريب حقًا .. أليس كذلك ؟!

طريف وغريب ؟!

فقط ؟!

ـ وما الذى حدث بعدها ؟!

نفض أبى يديه عن الطعام حامدًا الله ـ سبحانه وتعالى ـ على نعمه ، ثم التفت نحوى متممًا القصة التى أثارت فى نفسى مشاعر بلا نهاية :

ـ بعد أن سيطرت على اندهاشى وجدته قد هندم نفسه مجدداً ، وتناول مجلته الفضائية المصورة من على سطح مكتبى ، ثم غادر الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة ..

ثم إنه نظر إلى الطبق الذى أمامى معقّبًا :

ـ .. إنك لم تتناولى طعامك يا صغيرتى !

لم أسمع ما قاله تقريبًا ، فقد كنت أجهز السؤال التالى فى دماغى :

ـ وما سر هذا الوشم على صدره يا أبى ؟!

ـ يحتمل الأمر الكثير من التفاسير !

ثم وهو يمر بقطعة من الخلال بين أسنانه أدلى بالتفاسير المحتملة :

ـ .. هذا الوشم بفعل فاعل ، ربما يكون أهله قد وشموه به وهو صغير ، وربما يكون قد وشم به نفسه ، وربما فعلها به أحدهم وفقًا لمعتقدات ما ، لكنى أستبعد النظرية الفضائية التى أراد ترسيخها فى ذهنى إن كان هذا هو مقصدك .. فى الغالب هذا الفتى مصاب بنوع من الاضطراب

النفسى أو العقلى الذى يتضمن ضلالات أقنع بها نفسه ، هذه الضلالات الخاصة بسكان الفضاء قليلة الانتشار فى مجتمعاتنا بعكس المجتمعات الغربية التى ينتشر فيها هذا الأمر بكثرة نظرًا لاختلافات ثقافية بيننا وبينهم ، لكن هذا ليس معناه أنه غير وارد حدوثه لدينا ، وهذا الفتى الريفى الذى درس الطب وانفتح على هذه الثقافة خير نموذج لهذا !

تفسير أنيق يليق بالدكتور (فاروق الجبالى) حقًا ، لكن مرجعيتى مختلفة ، ولا يوجد وقت لشرحها لك الآن يا أبى ..

معذرة ، ليس قبل أن أتأكد !

ـ سؤال آخر يا أبى ..

ـ تفضلى يا حضرة الصحفية اللامعة ..

ـ هل تعرف إلى أى قرية بالتحديد ينتمى هذا الفتى ؟!

ـ كان هذا مدونًا فى سيرته الذاتية كما قلت لك ، محل

الميلاد الخاص به يقع فى قرية تبدأ بـ (ميت) .. لكنى لا أذكر الباقى !

ترددت للحظة لكنى ألقيتها والسلام :

ـ (ميت خميس) ؟!

أشرق الوجه الضحوك :

ـ تمامًا ، هذا هو اسمها .. كيف عرفت هذا يافتاة ؟!

تبسمت قائلة وأنا أخفى خلف ملامحى براكين من الانفعالات :

ـ للصدفة قوانينها العجيبة يا أبى ، سأروى لك كل شىء لاحقًا ..

ولكى تؤمن الصدفة على قولى ، فقد رن جرس هاتف المنزل لحظتها بالتحديد ، فهرولت نحوه حتى إننى كدت أقع على وجهى ، بينما شيعنى أبى بنظرات غير فاهمة ..

ـ آلو ..

إن كان المجيب هو السيد (س) فذلك ليس مدهشًا ، المدهش حقًا أنه لم يكن هو :

ـ (نسرين) .. كيف حالك ؟!

هذا صوت (رحاب) صديقتى التى تخرجت من الكلية إلى كون من الفراغ والعدم ، لكن صوتها لا يحمل رنة الكسل والتراخى المعتادة ..

ـ (رحاب) .. أنا بخير .. كيف حالك أنت ؟!

أجابتى بكلمة واحدة لتؤمن على قولى :

ـ خائفة !

انعقد حاجبىّ :

ـ مم ؟!

ـ هل تستطيعين الحضور إلىّ ؟!

نظرت إلى أبى الذى لاح ظله وهو يغسل يديه فى الحمام ، ليست لقاءاتى معه كثيرة لذا يعز على تركه ..

- هل الأمر ضرورى ؟!

- إلى حد ما .. أهلى جميعهم فى (الإسكندرية) لظروف عائلية خاصة ، وأنا وحدى فى المنزل ..

- آه .. هذا سبب خوفك إذن !

- ليس هذا فحسب .. ولكن ..

- لكن ماذا ؟!

- هناك أشياء غريبة تحدث فى الشقة المجاورة لنا يا (نسرين) .. أشياء غريبة حقًا ..

كانت نبراتها خائفة حقًا ، ولعل الشفقة والفضول هما الدافعان الأساسيان اللذان جعلانى أصدر قرارى ..

شكرًا للشفقة والفضول ، وسحقًا لهما فى الوقت نفسه !

* * *

٤

سألتنى (رحاب) فى اضطراب عظيم :

- هل نفعل الصواب يا (نسرين) ؟!

نظرتُ إليها فى صرامة ، وأجبتُها بفعل ..

دفعت الباب بقوة لا أدرى من أين واتتنى ، صار الطريق على إثرها ممهدًا أمامنا ؛ لتدلف إلى عالم المجهول ..

* * *

أوصلنى أبى بسيارته إلى منزل (رحاب) ، وعندما أوقف السيارة أمام البناية مال نحوى قائلاً فى عتاب غير حقيقى :

- كنت سأقضى الليلة فى المنزل لولا رغبتك فى قضاء الليلة مع صديقتك الوحيدة !

قلت باسمة فى مكر فيه طفولة وبراءة ناظرة فى ساعة السيارة التى تشير إلى العاشرة مساء تقريبًا :

- بل كنت ستتركنى نائمة وتهبط إلى المستشفى كما يحدث دائمًا ، فأصحو من نومى ولا أجدك فى سريرك !

قبلنى فى أبوة حقيقية ، وتأمل فى وجهى قائلاً :

ـ أورثتك أمك رحمها الله الكثير ..

نظرت فى مرآة السيارة الأمامية التى جمعت وجهينا وقلت :

ـ وأورثتنى أنت الكثير بدورك ..

هبطت من السيارة ، وهو يتابعنى بتحذير :

ـ حاولى ألا تورطى نفسك فى الكثير من المشكلات ..

انحنيت بحيث يرانى عبر زجاج المقعد المجاور الذى أقف أمامه ، وقربت إبهامى وسبابتى قائلة فى بسمة حب :

ـ لا تخف ، القليل منها فقط !

ابتعد بسيارته باسمًا ، ودلفت أنا إلى مدخل البناية ، وبعد ثلاثة طوابق كنت أقف أمام باب منزل (رحاب) أضغط الجرس حتى فتحت لى أخيرًا بوجه شاحب ..

ـ تأخرت يا (نسرين) ..

ـ مسافة الطريق فقط ..

تركت لى متسعًا للعبور إلى الداخل وأغلقت الباب خلفى ، فيما طرقت أنا الحديد الساخن :

ـ .. ما الذى يحدث ويثير خوفك هاهنا إلى هذا الحد ؟!

كنت قد التفتّ نحوها لأجدها تشير بسبابتها على فمها لتسكتنى :

ـ هششششش .. اسمعى ..

سكت ولم أسمع شيئًا ، لو كانت نكتة قديمة من طراز (هذا ما سيذهب عقلى ، أنا بدورى لا أسمع شيئًا) فالأمر لا يستحق الضحك على الإطلاق !

ـ لا أسمع شيئًا ..

قلتها هازة كتفى ، فعادت تهمس وهى تشير بسبابتها الأخرى إلى جهة مبهمة :

ـ هششششش .. اتبعينى ..

قادتنى خلفها إلى غرفتها عبر الصالة الواسعة التى يحتلها الصالون المذهب ، وأنا أفكر فى امتعاض : لو أن (رحاب) قد جنت فهذا يعنى أننى سأقضى ليلة ليلاء بحق !

عندما بلغنا غرفتها وجدتها تصعد فوق سريرها ، وتلصق

أذنها بالحائط الذى علقت عليه صورة بحجم كبير لـ (هانى شاكر) مطربها المفضل ، كأنها تريد أن تؤكد لى نظرية الجنون ، ظلتْ هكذا لثوانى وأنا أحدق فيها بغباء قبل أن أتفوه بالسؤال المحتوم :

ـ ماذا هناك يا (رحاب) ؟!

التفتت إلىّ سائلة فى دهشة ، وهى تشير إلى الحائط :

ـ ألا تسمعين أى شىء ؟!

هنا خلعت حذائى وصعدت فوق السرير مثلها ، لو أن الجنون هو الحل فلن يفوقنى أحد جنونًا ، لكن ...

مهلاً !

إنها على حق ، أسمع بعض الأصوات الغريبة الآتية من بعيد ، كأنها تنبعث من آخر الدهر لو كان التشبيه مناسبًا ..

أصوات أشبه بتشوشات لاسلكية ، مثل التى أسمعها فى سيارة (هشام) كإشارات توجه إلى مكان معين مثلاً ، مع أصوات آلية أخرى لا أدرى كنهها ..

ـ هل تعنين هذه الأصوات التى تشبه التشوشات اللاسلكية ؟!

هزت (رحاب) رأسها فى إيجاب ، وهمست بينما تنهار على ركبتيها فوق السرير :

ـ هى .. لقد أصبح الأمر لا يحتمل ..

جلست بجوارها ، وأنا أتعجب مربتة على كتفها :

ـ أى أمر هذا الذى لا يحتمل يا عزيزتى ؟! لا أسمع سوى أصوات بسيطة تصدر من الشقة المجاورة لك ولا أجد فيها ما يثير الخوف ..

حدقت فىّ (رحاب) بعينين محمرتين :

ـ هل أنصتى جيدًا لما يقال ؟!

ألصقت إذنى بالجدار مجددًا ، لكنى لم أميز ما يُفهم وسط التشويش الذى يغلب على الأصوات . مجرد عبارت لا أميز منها معنى ، بل لا أعرف لها لغة محددة ..

« مجرد عبارات لا أميز منها معنى ، بل لا أعرف لها لغة محددة ! »

قلتها وأنا أهز كتفى مرة أخرى ، بينما احتضنت (رحاب) ساقيها وهى تقول فى خوف عظيم ، كأنها نظرت فى عينى عفريت من الجن :

ـ منذ أسبوع وأكثر والصوت مستمر ، أصحو عليه فى النهار ويقض على مضجعى قبل النوم ، حاولت تجاهله مرارًا وتكرارًا لكنه ملح إلى درجة مفزعة ..

أشرت إلى الجدار وسألتها :

ـ من يسكن فى الشقة المجاورة لكم هذه ؟!

أجابتنى وهى تجاهد لتفض الصوت ـ الذى يطارد خواطرها ـ عن خواطرها :

ـ إنها شقة يملكها جار لنا يعمل فى محافظة أخرى ، ويؤجرها مفروشة كل بضعة أشهر لساكن جديد ..

بدأ الأمر يقلقنى ، وبدأت الفئران تتوالد فى قفصى الصدرى :

ـ ومن يسكنها الآن ؟!

ـ شخص لا أعرفه ، لم أره من قبل .. سألت عنه البواب فأخبرنى أنه طبيب من الأرياف يدعى (عماد فرج) ، يقضى طوال النهار خارج الشقة ولا يعود إلا بعد منتصف الليل ، ويغادر قبل شروق الشمس ، وفى أيام النوبتجيات المتأخرة لديه لا يعود إلى الشقة أصلاً ، لذا فقد فشلت فى لقائه وسؤاله عن مغزى ما يحدث فى شقته ..

طبيب ومن الأرياف لثالث مرة فى يوم واحد ، لن أندهش أبدًا لو كان هو الآخر من (ميت خميس) !

الفئران تزداد ولا مصائد :

ـ منذ متى يسكن (عماد) هذا بجواركم ؟!

مصادفة أخرى تتكرر للمرة الثالثة على التوالى فى نفس اليوم ، لم أنتبه إليها إلا عندما نطق لسانى اسم الرجل الأخير ..

(عارف فكار) .. يقابلنى ..

(عاصم الفرماوى) .. يقابل أبى ..

(عماد فرج) .. يسكن بجوار (رحاب) ..

عين .. فاء ..

الثلاثة أطباء وريفيون وربما من القرية نفسها ..

الثلاثة غامضون !!

أجابتنى (رحاب) :

ـ شهر واحد تقريبًا ، أو ربما أقل ..

كل شىء يبدو مصطنعًا ، ملفقًا بتعبير أدق ..

عدت أسأل :

ـ هل تفهمين أنت بدورك شيئًا من هذه الأصوات يا عزيزتى ؟!

هزت (رحاب) رأسها بالإيجاب ، قبل أن تقول :

ـ منذ شهر وهى تتكرر دون انقطاع ، أسمعها فى رأسى حتى عندما أغادر المنزل ، إنهما عبارتان تتكرران بالإنجليزية وتختلفان فى المبنى والمعنى اختلافًا طفيفًا للغاية ..

ـ عبارتان ؟!

تساءلت مقطبة وأنا أستشعر الخطورة المتزايدة فى اطراد متسارع ، فأسرعت (رحاب) تقولهما بالعربية :

ـ نحن قادمون .. فاصل من التشويش .. ثم .. إنهم قادمون !

صعقتُ وأنا أردد :

ـ ماذا ؟!

وألصقت أذنى بالحائط لأكتشف الحقيقة المؤلمة بنفسى :

(رحاب) محقة !

ـ هل تسمعين ؟!

سألتنى فأجبت :

ـ بوضوح ..

ـ ماذا إذن ؟!

سؤال جيد ، إن إبلاغ الشرطة عبث ، حتى لو كنت أعنى بالشرطة خطيبى (هشام) !

نهضتُ واقفة بجوار السرير ، ودسست قدمى فى حذائى وأنا أقول (ربما كانت عيناى تلمعان وقتها مثل أبطال القصص البوليسية) :

ـ سنقتحم الشقة ونرى كل شىء !

هذه المرة هى التى صعقت ورددت :

ـ ماذا ؟!

لكنى شرعت فى التنفيذ على الفور ..

اتصلت بمحل صناعة وإصلاح مفاتيح قريب أعرفه ، وأعطيتهم العنوان ليرسلوا لى بأحد العاملين لديهم مدعية أن شقتى قد أغلقت ومفاتيحها فى الداخل ، ولكى أحكم الحبكة ادعيت بأنى أتصل من عند جارتى ، كل هذا و(رحاب) ترمقنى بعينين يطفر منهما الرعب لكنى بارعة فى تجاهل ومعالجة مثل هذه الأمور البسيطة ..

ـ ماذا لو انكشفنا يا (نسرين) ؟!

ـ لا تقلقى يا (رحاب) ، لست مخطوبة لضابط شرطة إلا لينفعنى فى مثل هذه المواقف المحرجة !

لم يمض وقت طويل حتى حضر العامل الذى عالج رتاج الباب المقابل لباب شقة (رحاب) ، الذى ادعيت بالطبع أنه باب شقتى ، كانت (رحاب) ترتجف خوفًا من أن يصعد أحد فى أثناء عملنا فنقع فى حيص بيص ، لكن اللّه شاء أن يسترنا ، فلم يستغرق العامل بضع دقائق إلا وكان الباب قد انفتح فعلاً ، عن جوف مظلم ـ ومخيف بالتالى ـ بالداخل ..

ـ أشكرك يا أسطى ..

ومنحته بقشيشًا سخيًا طار سعادة به قبل أن يختفى أسفل السلم ، بعدها على الفور سألتنى (رحاب) فى اضطراب عظيم :

ـ هل نفعل الصواب يا (نسرين) ؟!

نظرتُ إليها فى صرامة ، وأجبتُها بفعل ..

دفعت الباب بقوة لا أدرى من أين واتتنى ، صار الطريق على إثرها ممهدًا أمامنا ؛ لندلف إلى عالم المجهول ..

أغلقت الباب خلفنا ، وضغطت زر الإضاءة لتتبدى أمامنا الصالة الواسعة ، ولينعقد حاجباى وأنا أرمق المنظر الذى بدا مفتعلاً هو الآخر إلى حد لا يصدق ..

لوحة ضخمة على الجدار المقابل لحجرة (رحاب) ، مرسوم عليها مثلث أخضر كبير تنتهى رءوسه الثلاثة بدوائر حمراء صغيرة ، وهناك منضدة خشبية أمامها موضوع فوقها جهاز مذياع متوسط الحجم موصل بقابس كهربائى ، من هذا المذياع تندلع التشوشات والعبارتان الإنجليزيتان المتكررتان اللتان أصبحتا أوضح للأذن من موقعنا هذا ..

فيما عدا ذلك فالشقة خاوية على عروشها تقريبًا ، ليس هناك إلا ثلاجة صغيرة وموقد فى المطبخ ، وفراش غير مرتب على أرضية غرفة النوم الوحيدة ، ومن الغريب ـ وغير المفهوم أيضًا ـ أن نافذة غرفة النوم كانت مفتوحة بدورها على الشارع بالأسفل !

بحثت فى الشقة كلها ولم أجد شيئًا آخر ، لا أوراق خاصة

بالساكن ، لا كتب أو قصاصات ورقية مهملة ، لا أطعمة أو بقايا أطعمة ، لا توجد حتى سلة مهملات ..

منتهى الغرابة ..

نظرت (رحاب) فى ساعة معصمها قائلة فى توتر بلا حدود :

ـ صار لنا هنا أكثر من ربع الساعة ، ألا يجب أن نغادر قبل أن ...

وبترت عبارتها المفهومة إلى حد ليست مضطرة معه إلى الإتمام ، بينما وقفت أنا فى منتصف الصالة أهرش فى رأسى باحثة عن أى تفسير لهذا الذى يحدث منذ الصباح ..

لماذا يحدث لى ـ أنا بالذات ـ كل هذا ؟!

أليس الترتيب والتوافق الزمنى نفسه بين هذه الحوادث غريبًا ومثيرًا للريبة ؟!

هل أصادف قبل نهاية اليوم شخصًا آخر يتكون اسماه

الأولان من حرفى العين والفاء ، ويعمل طبيبًا ، وجذوره تمتد إلى الأرياف ، ويؤمن بأن الغرباء قادمون من الفضاء لهدف ما وأن إشارتهم هى المثلث ؟!

وبمناسبة الترتيب والتوافق الزمنى ، فجدير بالذكر أن هاتفى المحمول كان لابد وأن يرن فى هذه اللحظة بالذات ..

رفعت شاشته أمام عينى ، كان رقمى ثمانية وصفر يتكرران كثيرًا مما يعنى أن الطالب يتحدث من رقم هاتف مشفر ليبدو أمامى على الشاشة بهذه الصورة ، وهكذا فقد كان من السهل استنتاج أن الطالب هو :

ـ آلو ..

ـ كيف حالك يا صغيرتى ؟!

ـ السيد (س) ؟!

ـ بالطبع ، ومن يمكن أن يكون غيرى فى ظروف كهذه ؟!

ـ صوتك ليس ككل مرة !

ـ تعرفين أن لا شكل لى ولا صوت أيضًا ..

قفزت فوق حواجز الريبة فى صدرى كمهرة أصيلة ، وتساءلت على الفور :

ـ ما هذا الذى يحدث حولى ؟!

ـ السيد (س) لايعطى إجابات جاهزة ، إنه يعطى خيوطًا تقود إلى الهدف البعيد ..

صوته وأسلوبه متغيران هذه المرة ، ومع هذا فمحتوى الحديث واحد ..

ـ وإذن ؟!

ـ استخدمى عقلك ولا تصدقى ما لم تره عينك ..

ـ كيف ؟!

ـ أمامك ثلاثة طرق تؤدى إلى نفس المكان ، وفى يدك وحدك الاختيار ..

حاولت أن أكون ظريفة :

ـ ليس فى يدى الآن إلا الهاتف المحمول !

لم يضحك ، وإنما قال :

ـ سأكون بجوارك كالمعتاد ، حتى وإن ذهبت بعيدًا فى أى من الطرق الثلاثة ..

ـ أهذا كل شىء ؟!

ـ أجل ، إلى اللقاء يا صغيرتى ..

وضحك ضحكة بلامبرر ، ثم أغلق الخط ..

أما أنا فقد نقلت بصرى بين (رحاب) التى سألتنى بمنتهى القلق :

ـ هل سنبقى هنا طويلاً ؟!

.. وبين لوحة المثلث فى الصالة أمامى ، والمذياع أسفلها ما زال يذيع نبأ القادمين الذين لانعرف عنهم شيئًا بالمرة !

* * *

لولو

٥

ملابسى فضية لامعة من الخيال العلمى البعيد ..

أسبح فى منطقة انعدام الوزن الفضائية ..

شعرى ثابت ومعلق فى الهواء ..

وبدلاً من النظارة الأثيرة أرتدى خوذة ذات زجاج شفاف ..

من خلال نافذة المركبة أرى صفحة الكون السوداء المرصعة بالنجوم ..

والكواكب حولى تدور فى حضن المجرة ..

وقرص الشمس الذهبى فى الأفق المستحيل ..

وهو ..

ظل يتماوج ما بين بهجة الشمس ..

وحزن القمر ..

ظل يقترب ..

واقترب ..

ـ حتى هنا ألقاك ؟!

أتساءل بعينين تضحكان من وراء الزجاج غير القابل للكسر ..

ـ أنا دائمًا هنا ، وهنا هو حيث تكون الصغيرة ..

يجيبنى بصوته الذى بلاصوت ..

يبتسم دون شفتين ..

ويضحك دون غمازتين ..

ـ الصغيرة كبرت ..

أقولها وأنا أسبح فى الهواء بمرح كفراشة ..

ـ الصغار لا يكبرون ..

يقولها وهو يتضخم ؛ فيصبح ظلاً باتساع المسافة ..

ظل بحجم الأرض والسماء وما بينهما ..

ـ هل أنت أنت ؟!

سؤال غريب ، لكن ..

الجواب أغرب ..

ـ أنا لست أنا ..

وتبدأ رحلة الابتعاد ..

ـ .. أنا أنت وأنت أنا ..

الابتعاد ..

أهتف فى جزع يتبخر معه المرح على جناحى الفراشة :

ـ انتظر .. لا تذهب نحو الشمس .. ستحترق ..

ـ وهل يحترق الرماد ؟!

الابتعاد ، ثم ..

الغيـاب ..

والصحو ..

* * *

تركتُ (رحاب) فى الصباح بعد ليلة من الأرق والنوم المتقطع ، وقد أصبحت أحسن حالاً إلى حد ما ، كنا قد علمنا مصدر الصوت وقمنا بفصل قابس الكهرباء الخاص بالمذياع قبل أن نغادر الشقة ونعيدها إلى ما كانت عليه ، وقد كان عامل المفاتيح بارعًا فلم يترك أى أثر لمحاولة فتح الباب الناجحة لحسن حظنا جميعًا ..

لا تزال نحلة الأفكار المزعجة تطن فى رأسى الدائرة من قلة النوم ، وكان الضباب المنتشر فى تلافيف مخى يحول تركيزى إلى الصفر أو أقل ..

فى مكتبى بالجريدة شربت كوبين من النسكافيه مما أعاد إلىّ توازنى بعض الشىء وأصبحت مستعدة لمقابلة (عارف فكار) مرة ثانية !

لقد كان ينتظرنى منذ دلفت مقر الجريدة ، أخبرنى عم (مندور) الساعى أن هناك من يجلس فى صالة التحرير ، وقد سأل عنى بالاسم أكثر مرة ، ولما كان الوقت مبكرًا ـ التاسعة والربع صباحًا على أقصى تقدير ـ فقد أرجأت مقابلته حتى أستعيد توازنى المفقود ، وقد كان هو نائمًا ـ بالمعنى الحرفى للكلمة ـ على مقعده فى صالة التحرير حتى طلبت من العم (مندور) أن يدعوه للدخول بعد أن أنهيت النسكافيه ، وانتهيت ـ للمرة الألف ـ من التحديق فى تلك الورقة الغريبة التى وجدتها على مكتبى فور دخولى إليه ..

إنهم قادمون
السيد (س)

ورقة كبيرة مكتوب فوقها بالقلم الأسود الفلوماستر ، وبخط النسخ المنمق ، وقد كانت تواجهنى فى تحدٍّ بمجرد جلوسى على المكتب ، كأنها تخرج لسانها لى ..

أصبح السيد (س) غامضًا أكثر من اللازم على ما يبدو !

لم تفارق عينى الورقة وأنا أجرع النسكافية كأنى مدمنة ، ولم يستطع عقلى المجهد إيجاد تفسير لها أو حتى لوجودها ..

أعرف أن السيد (س) يمكنه أن يظهر فى أى وقت ، وأن يختفى فى أى وقت ، وأن يترك ما شاء أينما شاء دون أن يراه أحد ، هذه ليست أول مرة ، لكن أن يفسر السيد (س) الماء بالماء ، أو أن يسير على نهج بيت الشعر القائل :

كأننا والماء من حولنا قوم جالسون حولهم ماء

فهذا ما لم يحدث من قبل !

المهم أنى فى النهاية حرصت على إخفاء الورقة عن عينى (عارف) المجهدتين إلى حد الهلاك ، وهو يدلف إلى مكتبى متثاقلاً يجر قدميه جرًا ..

ـ تبدو مجهدًا إلى حد الهلاك ..

قلتها وهو يجلس أمامى واضعًا حقيبته إياها على فخذيه ، قائلاً بدوره :

ـ بالفعل ، لم أذق طعم النوم منذ غادرت مكتبك صبيحة أمس ..

لم تبرز نبراتى التهكم المختبئ فيما أقول :

ـ يبدو أن لكلماتى وقع السحر عليك يا عزيزى (عارف) !

ـ وأكثر ..

ثم إنه فسر :

ـ .. قضيت يوم أمس بطوله وعرضه أبحث عن الدليل الذى طلبته عن صحة ما ورد فى موضوعى الذى كتبته ..

ـ والنتيجة ؟!

سألته فى غير حماس ، لكن عينيه تألقتا فى قوة إذ أجاب :

ـ مبشرة إلى حد لم أكن أتوقعه ، لقد عثرت على دليل قوى للغاية سيمنح الموضوع بعدًا جديدًا لم يكن فى الحسبان ..

ردّدت تعبيره فى تعجب :

ـ بعدًا جديدًا ؟!

ـ أجل .. بعدًا تاريخيًا لو صح التعبير !

سألته فى استبعاد :

ـ هل سافرت إلى قريتك بالأمس وعدت اليوم عاثرًا على هذا البعد التاريخى المزعوم ؟!

هكذا بكل بساطة ؟!

هز رأسه بالنفى ، وعيناه تزدادان تألقًا :

ـ كلا ، لم أذهب إلى البلدة .. لقد عثرت على هذا الدليل هنا ، فى (القاهرة) العامرة !

أول ما تبادر إلى ذهنى كان أداة الاستفهام :

ـ كيف ؟!

وكان الجواب المتوقع :

ـ مصادفة قد تحدث بنسبة الواحد فى المئة مليون مليون !

قلت مطرقة :

ـ كثرت المصادفات هذه الأيام ..

قال :

ـ لن تصدقى أبدًا ما عثرت عليه ..

كأنى أصدق أنه عثر على شىء أصلاً !

ـ هات ما عندك ..

نهض على الفور مشيرًا إلى باب المكتب :

ـ انهضى معى ، سنذهب إليه الآن ..

عقدت حاجبىّ فى غباء :

ـ نذهب إلى من ؟!

ـ إلى الدليل ..

ثم إنه فسر :

ـ .. الدكتور المتقاعد (عبد المجيد الطويل) سيخبرك بكل شىء بنفسه !

★ ★ ★

أنزلتنا سيارة الأجرة فى المكان الذى وصفه (عارف) للسائق بدقة ، وكنت أنا من دفع الأجرة ، فقد حاول (عارف) إقناعى مرارًا باستخدام وسيلة مواصلات أقل تكلفة ، ولكنى أصررت على هذه الوسيلة الفردية ، التى لا تعرض المرء للمهانة كما يحدث فى أغلب الوسائل الجماعية الأخرى ..

كان شارعًا جانبيًا فى حى (المنيل) الشعبى نوعًا ، والبناية التى دخلناها كانت قديمة متداعية ، لا أقول أثرية ..

ـ هنا يسكن الدكتور (عبد الحميد) هذا ؟!

قلتها متعمدة الخطأ فى اسمه وأشرت نحو البناية فلم ينطق (عارف) كما لم ينطق طوال الطريق إلى هنا ، تاركًا الفضول يأكلنى والأسئلة تشوينى ، دلف فى صمت وأنا خلفه أجمّل نفسى بالصبر متذرعة أن الخبر الآن بفلوس وبعد قليل سيكون مجانًا !

السلم من الرخام القديم نحو مدخل عال ذى شراعتين ، ضغط (عارف) الجرس مرة واحدة فانفتح الباب على الفور ، وظهر الكهل من خلفه ..

ـ مرحبًا يا دكتور (عبد المجيد) ..

قالها (عارف) فى بسمة عريضة ، فرحب به الدكتور (عبد المجيد) بدوره :

ـ أهلاً يا ولدى .. تفضل .. من معك ؟!

تساءل وهو ينظر نحوى فتولى (عارف) مسئولية تقديمى إليه ، متعمدًا أن يفخم فى صورتى أمامه طبعًا لمآرب لا تخفى

على أحد ، بينما انتهزت أنا الفرصة لأدرس هذا الدكتور الكهل جيدًا من حيث المظهر ..

قصير القامة ، أشيب الشعر خفيفه ، عيناه ضيقتان ونظارته ذات زجاج سميك ، يرتكز على عصا خشبية تعاونه على المشى ويرتدى بذلة من الصوف تغطى منامة قطنية خفيفة ، باسم المحيا وإن كانت ملامحه حادة بعض الشىء ، التجاعيد منتشرة هنا وهناك لتصنع إعلانًا عن الشيخوخة المتقدمة لا يخطئه الناظر ، والآن ـ ونحن جلوس فى صالونه القديم كما هو متوقع ـ يتولى (عارف) مسئولية تقديمه لى :

ـ الدكتور (عبد المجيد الطويل) هو أول طبيب يتولى مسئولية الوحدة الصحية التى أنشئت فى قريتى الحبيبة (ميت خميس) !

ـ هكذا ..

قلتها وأنا أهز رأسى فى شىء من التفهم ، بينما تابع (عارف) :

ـ كان صديقًا لأبى رحمه الله ، وهو من جعل أبى يصر على إدخالى المدرسة ومن زرع فى أعماقى حب الطب مهنة وعلمًا ..

لم أكن مهتمة بتاريخه العائلى مرة أخرى ، لكن اللياقة حتمت علىّ ألا أقول ذلك علانية ..

ـ هل أعد لكما شيئًا تشربانه ؟!

عرض علينا الكهل فى طيبة ، لكننا رفضنا فى تهذيب ، وتابع (عارف) قصته :

ـ بالأمس كانت الدنيا قد أظلمت أمام عينى ؛ فجئت إلى هنا ورويت كل شىء لأبى الثانى الدكتور (عبد المجيد) وفوجئت بما لديه ..

سألت وقد أحرقنى الفضول :

ـ وما هو هذا الذى لديه ؟!

أشار (عارف) إلى الدكتور (عبد المجيد) الذى انطلق يتحدث كأنه يلقى بتقرير أعد سلفًا :

ـ فى عام ١٩٥٤ ، وبعد تولىّ الوحدة الصحية فى (ميت خميس) بضعة أشهر ، حل الموعد السنوى لمولد السيد (خميس) الذى تحتفل به القرية احتفالاً خاصًا ، لم أكن أحضر مثل هذه الاحتفالات لكن هذه الليلة بالذات كانت مميزة للغاية .. كانت الإنارة قد دخلت الوحدة الصحية وأماكن

أخرى قليلة تعد على أصابع اليد فى داخل القرية ، وكانت المرة الأولى التى نعانى فيها انقطاع الكهرباء !

القصة تنطابق إذن ..

ـ .. خرجت فى الظلام وفوجئت بضوء مبهر ينبعث من ناحية مقام السيد (خميس) ، وفى صباح اليوم التالى فوجئت مرة أخرى بفجوة على شكل مثلث فى أحد الحقول ..

تطابق .. تطابق ..

وماذا بعد ؟!

نظرت إلى (عارف) قائلة فى استسخاف مبهم :

ـ وهل يوجد دليل على هذا يا دكتور ؟!

أشار إلىّ (عارف) بيده أن أنتظر ، بينما استمر الكهل فى روايته كأنه لم يسمع تعليقى :

ـ لكن هذا لم يكن كل شىء .. فقد فوجئت مرة ثالثة عندما أتى الفلاحون بمريض وجدوه ملقى وسط الحقول فى حال يرثى لها ، وعندما فحصت هذا المريض كدت أسقط مغشيًا علىّ من هول الصدمة ..

سألته وقد نجح فى جذب انتباهى :

ـ وما سبب الصدمة ؟!

نظر إلىّ مجيبًا فى لهجته التقريرية غير العميقة :

ـ لم يكن المريض بشريًا ..

اقشعر بدنى من المفاجأة وأنا أهتف به :

ـ ماذا ؟!

ـ كان له جلد أخضر ، وعينان مشقوقتان بالطول ، ورأس كبيرة خالية من الشعر ، وقد كان ينزف دمًا أرجوانيًا لم أر مثيلاً له فى حياتى ..

هتفت فى سخط يخلو من اللياقة :

ـ أى تخريف هذا ؟!

عض الدكتور (عبد المجيد) شفتيه وتابع فى لهجة بلا انفعال :

ـ لقى المريض مصرعه بعد عدة ساعات من الألم ، وقد شرحت جثته بنفسى بعدها لأكتشف تكوينًا تشريحيًا فريدًا من نوعه ليس له مثيل على سطح الكوكب كله ، كنت مستعدًا لتقديم هذا الاكتشاف الفريد إلى العالم غير أن ما حدث بعدها نسف كل شىء ..

كان قلبى يدق فى تسارع ، وأنا أحاول هضم الحصوات التى يلقيها فى جوفى ..

ـ .. ليلتها ـ الليلة التالية لاحتفال المولد ـ كانت ليلة سوداء على القرية كلها ، سيارات الحكومة أتت ونقلت أجسامًا معدنية غريبة من الحقول ، كان الأطفال يلهون بهذه الأجسام طوال اليوم ويحكون لبعضهم وللكبار كيف هبطت من السماء ، أشعل القادمون النار فى الحقل الذى ظهرت فيه فجوة المثلث ، اقتحموا الوحدة الصحية وأخذوا الكائن الغريب فى كيس جلدى وحذرونى من فتح فمى ، أنا لم أر شيئًا ولم أسمع شيئًا ولم أشرّح شيئًا وإلا فعلىّ وحدى تحمل العاقبة الوخيمة !

نظرت إلى (عارف) فى ذهول رهيب ، ورأيته يبتسم فى ظفر ..

ـ عاد كل شىء بعدها إلى طبيعته الأولى ، ونسيت القرية ما حدث ليلتها ، ومع مرور السنين وتكرار الاحتفال العادى بالمولد ذهب كل شىء طى النسيان ، لكن ما رواه لى (عارف) بالأمس جدد الذكرى ، وجعلنى أعود بالذكرى ، وجعلنى أعود بالذاكرة خمسين عامًا إلى الوراء ..

نظر (عارف) إليّ مرددًا ، وبسمته الظافرة تتسع :

ـ هل تسمعين ؟! خمسون عامًا !

إنهم قادمون إذن !!

من هم ؟! ولماذا ؟! وأين ؟! وكيف ؟! ومتى ؟!

اسألوا (عارف) ومن معه ، فلساني معقود ، ومنطقي غائب ، وعقلي في إجازة مفتوحة ..

كل ما استطعت قوله لـ (عارف) لحظتها :

ـ يجب أن أذهب إلى (ميت خميس) هذه ..

تلاشت بسمته للحظة ، ثم عادت تتسع أكثر وأكثر مع قوله :

ـ على الرحب والسعة يا صحفيتنا اللامعة !

* * *

٦

على هدير عجلات القطار المنتظمة ، واهتزازات المقاعد الخشبية المتآكلة في عربة الدرجة الثالثة ، جلست أراقب أعمدة الكهرباء التي تتوالى على الطريق الزراعي ، وأنظم أفكاري كخرزات ملونة في حبل متصل ..

(عارف فكار) جالس بجواري ، يفكر هو الآخر في شرود ، أستطيع أن أخمن ما يدور في ذهنه بينما أراهن على عجزه أن يفعل المثل ..

ـ تذكري أنني حذرتكِ كثيرًا ، سينكر الجميع كل شيء ..

قالها وهو يدور بوجهه وسبابته نحوي ، فرسمت على شفتيّ بسمة غامضة وأنا أقول دون رد النظر نحوه :

ـ هذا متوقع بالطبع ، لكن .. لا تخش شيئًا ، ستظهر الحقيقة رغم أنوف الكارهين ..

عدت أراقب الطريق ، وانعكاسَ وجهي الغامض على زجاج النافذة المجاورة المكسور ، قابضة على حقيبتي التي تحوي آلة التصوير الرقمية الحديثة ، وتاركة (عارف) ليفهم من كلامي وصمتي ما شاء ..

الغموض هو سلاحى الأقوى الذى لا أنوى تركه الآن ..

مضى يومان منذ لقائى بالدكتور (عبد المجيد الطويل) الذى لم يكن طويلاً ، ومنذ ساعتين تقريبًا تقابلنا ـ أنا و(عارف) ـ فى (محطة مصر) وانطلق بنا القطار الذى لم يكن يحوى سوى عربات من الدرجة الثالثة إلى (ميت خميس) ، وسط الفلاحين والعاملين البسطاء والدجاج الذى (يقاقىء) وباعة الكعك الدائرى الذى يطلق عليه (سميط) ودلاء المياه الغازية المدفونة وسط قطع الثلج ، والأرجل البشرية المدلاة من حيث يجب أن توضع الحقائب بالأعلى ، وحيث يمدد البعض فوق سطح القطار فيما يطلق عليه (تسطيحة) ..

الجو خانق والروائح لا تحتمل ، لكنى كنت غائبة عن هذا تمامًا ، سابحة فى بحيرة أفكارى الرائقة وحدى ، لا يشاركنى فيها أحد ..

بعد قليل صافحت عيناى لافتة معدنية مكتوب فوقها بخط منقرض (ميت خميس) ، كان هذا إيذانًا بالوصول ، ثم الهبوط إلى محطة القرية المتداعية (المحطة لا القرية التى لم أرها بعد) ، وقلتُ فى نفسى أن (عارف) قد أجاد التعبير حقًا فى كتابته عن المحطة ، فى الصفحات التى قرأتها له منذ أيام قليلة خلت ..

وقفنا وسط الزحام المحدود ، ومددت يدى لأخرج آله التصوير فيما ترك هو حقيبته الكالحة الصغيرة تحت قدمىّ قائلاً :

ـ سأعود على الفور ..

نظرت إليه فى تساؤل :

ـ إلى أين ؟!

ـ دورة المياه ..

واختفى فيما أخذت أنا أدور بالعدسة فى أنحاء القرية ، محاولة تقمص روح الفن التشكيلى وحالمة بمعرض صور فوتوغرافية يحمل اسمى ، فى مركز ثقافى غربى من تلك المراكز المنتشرة فى وسط العاصمة ، حيث يشجعون هذه الألوان من الفنون غير المطروقة لدينا ..

مجرد حلم داعبنى للحظة ، ثم طار كالحمام الغريب ، وهذه الأحلام الخاطفة لا تخضع لحسابات ولا تترك أثرًا ؛ لذا لا ينظر لى أحدكم هذه النظرات من فضلكم !

التقطت بضعة صور ، قبل أن ..

ـ يمكنك أن تلتقطى صورة لى أنا أيضًا ..

التفتّ نحو مصدر الصوت الشاحب ، الذى تابع وأنا أتفرس فى صاحبه :

ـ .. فأنا من أعلام هذه المحطة يا فتاة !

الشعر الأشيب الطويل وبذلة العمل الكاحلة ، بالحروف المطرزة الثلاثة التى تذوى تدريجيًا فوق جيبها العلوى ..

(س ح م) ..

قلت أول ما جال بخاطرى وقد نسيت اسم الرجل الذى قرأته منذ أيام قليلة خلتّ :

ـ أنت .. ناظر المحطة ، أليس كذلك ؟!

ابتسم كاشفًا عن صف من الأسنان المتداعية ، قائلا وهو يشير إلى صدره ببيده المعروقة :

ـ خادمك المطيع (سيد أحمد عبد الدايم) ، أنا أعمل فى هذه المحطة منذ دخل إليها خط السكة الحديد ، كان هذا من زمان موغل فى البعد حتى إن التواريخ سقطت من ذاكرتى سهوًا ..

نعم ، العم (سيد أحمد) ، هذا هو الاسم الذى استخدمه (عارف) أيضًا ..

مرحبًا بك !

لم أجد غيرها يقال ، فانطلق يرحب بى بمنتهى الأريحية :

ـ بل مرحبًا بك أنت ، (ميت خميس) أنارت كلها بحلول ضيوفهم الكرام ..

وجدتها فرصة ـ قد تصيب وقد تخيب ـ لتقصى الحقيقة الغائبة ، مستخدمة تعبيرات (عارف) نفسها فيما كتبه :

ـ قل لى يا عم (سيد أحمد) ، هل هناك أشياء غريبة تحدث هذه الأيام فى (ميت خميس) ؟!

لم تتلاش بسمة الرجل وهو يجيبنى :

هناك دائمًا أشياء غريبة تحدث فى كل مكان ..

ثم مال الرجل نحوى هامسًا وغامزًا ، فاكتست نبراته بالمزيد من الشحوب :

ـ .. المهم أنها تمر دون أن تترك أثرًا كبيرًا !

نظرت إليه فى استغراب هائل وأنا أسائل نفسى إن كان الرجل فيلسوفًا كبيرًا أم مجرد مخرف هرم !

قبل أن أشرع فى البحث عن إجابة سمعت الصوت يناديني من جهة مخرج المحطة :

ـ أستاذة (نسرين) .. يا أستاذة (نسرين) ..

التفتُ ورأيت (عارف) من بين الزحام المحدود فى المحطة ينادينى عند البوابة ، بيديه أن أحضر إليه اختصارًا للوقت ، وهكذا التفتُ مترة أخرى إلى العم (سيد أحمد) لأستأذن منه فى الانصراف ، غير أنه ..

لم يكن هناك !

تلاشى فى الزحام المحدود داخل المحطة الصغيرة فى قرية (ميت خميس) التى تحدث بها أشياء غريبة هذه الأيام ..

هززت كتفىّ وحملت حقيبة (عارف) الكالحة التى تشبه حقيبة (تشيكوف) ، تناولها منى (عارف) أمام البوابة ؛ ثم دلفنا من خلالها إلى عالم قرية (ميت خميس) الصغير ذلك العالم الذى أجاد (عارف) وصفه هو الآخر فى الأوراق التى قرأتها له منذ أيام قليلة خلت ..

الطرق والبيوت والحقول والحيوانات والبشر ..

حتى الروائح والأصوات التى لاصدى لها ..

كأنى رأيت كل هذا من قبل فى كلمات (عارف) السالفة الذكر ، الجميع ينظرون نحوى باستغراب وأنا سائرة إلى

جواره بآلة التصوير التى أروم اقتناص اللحظات الجامدة بها ، الجميع شاردون وصامتون كأنه النوم أو الموت ، أو مداراة لسر يأبى على نفسه الانكشاف ..

هناك سرادق عزاء متواضع منصوب أمام منزل فى طريقنا ، الجلوس فيه قليلون ، راودتنى نفسى عن التقاط صورة لكن (عارف) أوقفنى :

ـ فى قريتى لايحبون الغرباء ، فخذى الحذر من كل كلمة وكل تصرف ..

قلت فى بساطة :

ـ كنت سألتقط صورة فقط ..

قال وهو يسبقنى نحو الترعة :

ـ للموت هنا حرمته ، أنصحك بأن تتريثى قليلاً ..

وعند الترعة وقفت ناظرة ومنتظرة حتى أقلنا عم (يوسف) فى زورقة إلى الضفة الأخرى ..

ـ أنت صحفية من (مصر) إذن !

قالها الرجل بلهجته الريفية الفحة التى لم تشبها شائبة

لهجة أخرى ، وبابتسامة فيها من الحنين ما يفوق الفضول ، فهززت رأسى بالإيجاب ونظرت إلى (عارف) نظرة ذات مغزى ..

ـ .. عمار يا (مصر) ..

قالها العم (يوسف) بعد تنهيدة حارة ، وحدثت نفسى سألتقط له ولزورقه صورة فى رحلة العودة ، ربما للذكرى !

استقبلتنى أم (عارف) بحفاوة لم أتوقعها ، كن ابنها قد جاء بعروس له من (القاهرة) ، واستقبلتُ حفاوتها ببعض الارتباك وكثير من التأمل فى جوانب المنزل ، فلم يكن بهذه الحقارة والتواضع كما وصفه (عارف) فى معرض حديثه المكتوب ..

وضعت أمامنا المرأة الريفية المسنة الكثير من الطعام الذى لا أعرف من أين أتت به ، تناولت منه ما أستطيع وسط صخب الأطفال الصغار وتقافزهم حولنا كالبراغيث ، ونظرت إلى (عارف) نظرة أخرى ذات مغزى ، غير أنه لم يفهم منها ما أردته ..

ـ مدى يدك يا دكتورة (نسرين) .. لا تخجلى منا !

نظرت إلى المرأة الطيبة الممعنة فى حفاوتها وقلت :

ـ لست دكتورة يا سيدتى !

أشارت الأم إلى ابنها قائلة فى غير فهم :

ـ ألست زميلة (عارف) فى الكلية ؟!

هززت رأسى بالنفى ، فبان على وجه المرأة الكثير والكثير من التساؤل ، نظرت إلى (عارف) فتطوع بالإجابة :

ـ الأستاذة (نسرين) صحفية يا أماه ، جاءت من أجل مهمة محددة ..

ربما كانت المرأة تظن أننى عروس ابنها بالفعل ، لكنها على ما يبدو نفضت الفكرة عن رأسها وقالت :

ـ أهلاً وسهلاً .. حصل لنا الشرف يا أستاذة ..

قلت على الفور :

ـ جئت لأغطى الحدث المهم الذى يتكرر فى قريتكم مرة كل عام يا سيدتى ..

عادت المرأة تنظر نحوى ونحو ابنها فى تساؤل ، فقال (عارف) فى ضيق :

ـ إنها تعنى مولد السيد (خميس) يا أمى ..

انطلقت المرأة تروى الأساطير التى تحيط بذكراه ، لكن هذا لم يكن ما أبحث عنه ..

ـ أريدك لحظات على انفراد يا سيدتى ..

قلتها وأنا أنهض من أمام الطعام الممدود ، وأنفض كفى من البقايا الوهمية العالقة فيها ، فنهضت الأم بالتالى وهى تنظر إلى ابنها نظرات استنجاد غير معلن ، غير أنه أشار إليها بطرف خفى أن تتبعنى ..

فى غرفة المرأة ـ التى لم تكن متواضعة هى الأخرى إلى هذا الحد ـ نظرت إلى صورة والد (عارف) المتوفى ، فى لقطة قديمة للغاية تجمعه بالمرأة الطيبة فى ليلة الزفاف ، وأغلقت المرأة الباب خلفنا لترنو إلىّ فى لهفة مفاجئة :

ـ أخبرينى يا بنتى ، أنا فى مقام والدتك .. هل (عارف) بخير ؟!

نظرت إليها وسألتها فى حيرة :

ـ ما الذى جعلك تسألينى مثل هذا السؤال ؟!

غمغمت فى أسى :

ـ قلبى يأكلنى عليه ، ظننته فى البداية عروس أتى بها بعد أن أقلع عن الأوهام التى فى رأسه ..

كانت اللهفة من جانبى هذه المرة :

ـ أية أوهام تقصدين ؟!

قالت وهى تجلس على طرف سريرها الواسع لتنعى حظها :

ـ لا أعرف .. كان مثل الوردة اليانعة .. وفجأة تغير كل شىء .. باع ميراثه من أبيه ، وأخذ يطارد أحلامًا غريبة ، ويتحدث فى أمور لا أفهمها ..

رددت فى ذهول :

ـ ميراثه من أبيه ؟!

هزت المرأة الطيبة رأسها فى إيجابها وهى تواصل نفث حسراتها المكبوتة :

ـ قيراطان صغيران من الأرض الزراعية ، ظننته سينفق على تعليمه من بيعها لكنه بدد الثمن فى شراء كتب وطبع كتب وهذه المسائل التى لا أفقه منها شيئًا بحكم جهلى القراءة والكتابة ..

ـ هكذا إذن ..

ثم إنى سألت المرأة الطيبة :

ـ .. أخبرينى ياسيدتى ، هل حقًا كان مولد السيد (خميس) منذ عدة أيام ؟!

هزت رأسها بالإيجاب ، فتابعت :

ـ .. وهل حدث يومها انقطاع للكهرباء وظهور لطاقة نور فوق المقام ومثلث فى حقل زوجة العمدة ؟!

رفعت إلىّ عينان مغرورقتان بالدمع وهى تقول :

ـ هو أخبرك بذلك بكل تأكيد ..

قلت وأنا لا أطيق صبرًا :

ـ أريد جوابًا حاسمًا ..

طأطأت رأسها وأعطتنى جوابًا حاسمًا :

ـ لا أعلم من أى داهية يأتى بهذا اللغو !

ـ أخبرتك أنهم سينكرون كل شىء ..

قالها (عارف) فى نبرة تنقصها الثقة ونحن نتحرك من منزلهم فى اتجاه دار العمدة وحقوله ، فقلت أنا عابثة بآلة التصوير فى يدى :

ـ وأخبرتك أننى أتوقع هذا ، كما أخبرتك أن الحقيقة ستظهر حتمًا ..

بلع ريقه بصوت مسموع ، بينما نظرت أنا حولى وكلى فرح بمشاهد الطبيعة الخلابة :

ـ .. فى أى بقعة وقعت أثناء ركضك باتجاه المقام ليلة المولد ؟!

شرد (عارف) بناظريه فى الأنحاء ، ثم إنه أشار إلى لامكان قائلاً :

ـ هناك تقريبًا !

كليك ..

صورة لنافذة المقام المتواضع المنزوعة القضبان على التبة الصخرية المرتفعة الواقعة ما بين الحقلين ، ثم صورة أخرى للحقل الذى يطل عليه المقام ، والذى يعمل فيه الفلاحون فى طريقهم لإنهاء يوم الحصاد المشهود ..

كان خبر قدومى قد انتشر فى أنحاء القرية الصغيرة كلها ، مما جعل زوجة العمدة بنفسها (تخف) على أتان (أنثى الحمار) للترحيب بالضيفة التى تحمل آلة تصوير بجوار حقولها ومقام السيد (خميس) نفسه :

ـ لابد أن تتناولى عشاءك فى دارنا يا أستاذة ..

ابتسمتْ قائلة :

ـ أشكرك يا سيدتى ، يجب أن أعود إلى (القاهرة) فى قطار السابعة التى يتحرك بعد ساعة واحدة ..

ابتسمتْ قائلة :

ـ يبدو أن قريتنا لم تعجبك إذن ..

ـ بالعكس ..

ثم لوحتْ بآلة التصوير مردفة :

ـ لقد حصلت على ما أبغيه وزيادة ، لكن .. كانت لدىّ بعض أسئلة ما زالت تبحث عن إجابات ..

ـ مرينى يا حبيبتى ..

قالتها زوجة العمدة فى محبة صادقة ، فأشرت إلى قضبان النافذة التى كنت أصورها منذ لحظة وأنا أسأل :

ـ أين ذهبت قضبان هذه النافذة ؟! يبدو من آثار حواف النافذة أنها قد انتزعت حديثًا !

قالت زوجة العمدة :

ـ كان الصدأ قد هرسها ، لذا نزعناها منذ شهر تقريبًا

وسنركب القضبان الجديدة فى الأسبوع القادم على الأكثر بعد أن ينهى الحداد عمله ..

إجابة مقنعة !

أشرت إلى ناحية أخرى وأنا ألقى بسؤالى الثانى :

ـ والحقل ؟!

نظرت زوجة العمدة إلى الحقل الذى يمتد الحصاد إلى آخر جزء منه متسائلة بدورها :

ـ هذا حقلى .. ماذا عنه ؟!

ـ لماذا يتم الحصاد فيه اليوم بالذات ؟!

ـ إننا نحصد فيه منذ أكثر من أسبوع !

ـ ألم تظهر فيه أشياء غريبة منذ يومين مثلاً ؟!

قطبت الزوجة حاجبيها المرسومين بالكحل الخام ، وهى تردد فى استهجان :

ـ أشياء غريبة ؟!

ثم إنها أرسلت بصرها حيث يقف (عارف) أسفل التبة الصخرية ، على حافة حقلها يتأمل فى المجهول بعينين هائمتين ، وأشارت إليه متابعة فى حنق :

ـ .. هو من يختلق هذه الأكاذيب .. أليس كذلك ؟!

أجبت فى بساطة :

ـ بلى !

قالت زوجة العمدة بلهجة فيها شىء من الخطورة ، وهى تدير أصابعها بجوار صدغها دلالة على الجنون :

ـ خذى الحذر منه يا أستاذة ، فعقله خفيف بعض الشىء ..

نظرت إلى (عارف) بالأسفل ، وابتسمت فى غموض !

ـ لم أتوقع أن يبلغ الأمر هذا الحد ..

قالها (عارف) ونحن فى طريق العودة إلى المحطة ، فسألته بلا مبالاة :

ـ أى حد ؟!

هتف فى سخط :

ـ إنهم يخفون آثار ما حدث بمهارة يحسدون عليها ، وينكرون كل شىء ، كأن ما حدث لم يحدث بالفعل !

قرضت أظافرى وأنا أسأله :

ـ ماذا توقعت إذن ؟!

زفر (عارف) فى حرارة قبل أن يقول :

ـ يجب ألا نصمت إزاء هذا ، هناك أسرار رهيبة يتكتمون عليها ربما يكون فيها الضرر لنا جميعًا ..

عطست فى قوة ، ثم عدت أسأله :

ـ ماذا تقترح إذن ؟!

انطلق يهتف فى حماس :

ـ أن نثير الموضوع على صفحات الجريدة ، اكتبى الموضوع باسمك يا أستاذة (نسرين) فأنا لا أريد من ورائه مجدًا ، اكتبيه تحت عنوان (إنهم قادمون) .. واطرحى الأسئلة تلو الأخرى ، من هم وماذا يريدون ومن وراءهم ؟! اكتبى وسيصدقك الجميع خاصة وأن السيد (س) بنفسه قد تدخل فى هذه القضية ..

سألته دون أن أتوقف عن السير الحثيث نحو محطة القطار :

ـ من ؟!

هنا فقط انتبه لخطئه :

ـ السيد ..... (س) !

هنا فقط توقفت ..

هنا فقط نظرت إليه ولم يجرؤ هو على النظر إلىّ ..

هنا فقط سألته مستخدمة لقبه الذى يستحقه :

ـ كيف عرفت أن السيد (س) قد تدخل فى الموضوع يا دكتور (عارف) ؟!

هنا فقط أدرك أننى كشفته ..

من البداية !

* * *

٧

معذرة ياعزيزى (عارف)، كنت واضحًا أكثر من اللازم، والخدعة لم تكن بهذا الإتقان الذى تصورته فيها !

من اللحظة الأولى التى رأيتك فيها داخل مكتبى الجديد بالجريدة، شعرت أن خلفك شيئًا مفتعلاً، وأنك تريد مجدًا ليس لك ..

أنا لاأدعى الخبرة العميقة أو الفراسة التى لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لكنى ـ معذرة ـ لم أرتح لمرآك من البداية الأولى، محاولتك للكتابة كانت تسير على نهج أسلوبى إلى حد التطابق، حتى إننى شعرت لوهلة أننى أقرأ كلمات كتبتها بنفسى، ثم إن دفاعك المستميت عن كلماتك استنادًا على ما يُنشر لى فى الجريدة أشار فى وضوح قاطع إلى الطريق الذى تريد السير فيه ..

أنت تريد ماحصلتُ أنا عليه فى عالم الصحافة، قلت لنفسك ليست هذه الفتاة الحمقاء أفضل منى فى شىء ؛ لذا سأكتب بضع كلمات تنشر لى فى نفس الجريدة، فأحصل من خلالها على الشهرة والمجد الأدبى الذى فشلت فى الحصول عليه من طرق أخرى ..

من أين يمكن أن أبدأ قصتك معى ، عزيزى (عارف) ؟!

دعنى ألجأ لبداياتى غير التقليدية ، وأرجع فى الزمن إلى يومين فقط ، ثمانية وأربعون ساعة منذ افترقنا ـ أنا وأنت ـ أمام منزل الدكتور (عبد المجيد) المزعوم ، فركبتُ أنا سيارة أجرة نحو منزلى بينما فضلت أنت وسيلة مواصلات أقل تكلفة ، لكى تمعن فى إقناعى بتواضع حالتك المادية ، الأمر الدرامى الذى لا أجد له مغزى حتى الآن ..

كان يمكنك أن تسير فى قصتك الملفقة دون اللجوء إلى التخفى خلف أستار فقر مدّعى ، لكنك آثرت لمسة إنسانية خرقاء تضفيها على شخصيتك التى تريد تشكيلها وفقًا لمزاجك الشخصى أمام قارئ لن يقرأ منها شيئًا !

لم أذهب وقتها إلى المنزل ، وإنما انطلقت إلى مستشفى أبى على الفور ..

ـ (نسرين) ، أى رياح طيبة ألقت بك إلى هنا ؟!

ـ رياح صحفية باحثة عن المتاعب يا أبتى الحبيب ..

ـ وكيف يمكننى أن أساعد يا صغيرتى ؟!

ـ هل تذكر القصة التى قصصتها على مسامعى ليلة أمس ؟!

ـ أية قصة ؟!

ـ الطبيب الذى يهوى القراءة عن الأطباق الطائرة ، ذلك الذى يملك وشمًا فى بطنه على هيئة مثلث ..

ـ بالطبع ، إن ذاكرتى لم تضعف إلى حد أن أنساها !

ـ هل مازالت سيرة هذا الطبيب الذاتية لديك ؟!

ـ أذكر أنه تركها على مكتبى وأخذ المجلة فقط ..

ـ أريد أن أراها ..

ـ سأجعل السكرتارية يبحثون لك عنها .. استريحى وأخبرينى ، كيف يمكن أن يساعدك أمر كهذا من الناحية الصحفية ؟!

مضت ساعة أو أكثر حتى عثروا على الملف فى قسم السكرتارية ، لأخته بلهفة ومن النظرة الأولى أدركت الخدعة ..

لقد كنت من تقدم للاختبار يا عزيزى (عارف) ، منتحلاً شخصية طبيب تخرج من كلية الطب فعلاً ، وقد كان الحرفان الأولان فى اسمه الثنائى مطابقين لحرفى اسمك الثنائى الأولين مما يدل على تأثرك الشديد بقراءة سلسلة (رجل المستحيل) !

أراهن أنك لو كشفت عن قميصك الآن فسأجد ذلك الوشم الذى وصفه أبى بدقة مرتسمًا بوضوح فى نفس المنطقة التى وصفها أبى !

نصيحة مجانية ، فى المرة القادمة عندما تتقدم بسيرة ذاتية مخادعة إلى جهة ما فلا ترفق معها صور شخصية بهذا الوضوح يا عزيزى ، إن هذا كفيل بتوريطك فى قضية تزوير أو انتحال الأمر الذى سوف يفضى بك إلى السجن فترة لا بأس بها على الإطلاق ..

ـ منذ متى نشرت إعلان طلب الأطباء هذا يا أبى ؟!

ـ منذ أسبوعين تقريبًا يا صغيرتى ..

فترة زمنية كافية تمامًا للتحضير لخدعة مع بقية الخدع يا عزيزى (عارف) !

ـ سآخذ هذه الصورة يا أبى ..

ـ وهل أستطيع أن أمنعك ؟!

ثم إن هذه الصورة كانت مفتاح غرفة الأسرار التى لم تعد كذلك ..

انطلقت بالصورة إلى حيث كانت الخدعة الثانية ، المنزل المجاور لـ (رحاب) جارتى .. (.. أعرف كل شىء تقريبًا عن أبيك الجراح وأمك التى ماتت وأنت صغيرة وخطيبك العصبى الغيور وصديقاتك الجامعيات ، وعن السيد (س) بالطبع ..) ..

من الواضح أنك قد درست كل شىء بعناية على المستوى النظرى ، جمعت معلومات كافية عنى وعن حولى ، وقد وقع اختيارك على صديقتى (رحاب) بالذات لأنها من النوع الجبان ،

كانت فكرة جيدة أن تستأجر الشقة المجاورة لها ، وأن تضع لها الراديو الذى يذيع الجملتين حتى كاد رأسها ينفجر ، كل هذا كان سيصلنى بشكل أو بآخر ، وقد كان التوافق الزمنى مدهشًا بحيث تم كل شىء فى يوم واحد !

لقد قمتَ بعرض صورتك على بواب البناية التى تقطن فيها (رحاب) فتعرف عليك على أنك المستأجر الفعلى للشقة ، وفجأة برزت أمامى الفكرة الأخرى ..

اتجهت على الفور إلى البناية المقابلة للبناية التى تقطن فيها (رحاب) ، وهناك صعدت إلى الطابق الثالث وطرقت على باب الشقة التى تطل على الشارع الرئيسى ، لم يفتح لى الباب أحد فهبطت إلى بواب البناية وعندما عرضت عليه نفس الصورة استطاع أن يتعرف عليك بدوره على أنك مستأجر نفس الشقة !

لم تكن صدفة ، أعرف ، لقد فعلتها لتتمكن من المراقبة كل ليلة تحدث فى الشقة المجاورة لـ (رحاب) ولهذا تركت نافذة غرفة النوم فى الشقة الأخيرة مفتوحة باستمرار ، وهكذا فقد رأيتنى عندما دخلت الشقة مع صديقتى وعرفت أننى رأيت كل شىء ..

لكن الأمر لم ينته هاهنا ..

لقد غافلت البواب بعدها غبت قليلاً ثم عدت ومعى عامل من متجر صناعة مفاتيح ، صعدنا إلى الشقة فى الطابق الثالث وهناك قمتُ بتكرار نفس الحيلة التى دخلت بها الشقة المجاورة لـ (رحاب) ، استطاع العامل أن يفتح الباب بمهارة ودون أثر فنقدته مبلغًا محترمًا هو الآخر ، ودخلت إلى الشقة التى كانت عارية من الأثاث كالسابقة ، وهناك وجدت بغيتى ..

١ ـ جهاز إرسال ما فتىء يرسل بالجملتين الإنجليزتين على الموجة التى يستقبلها الراديو فى الشقة المجاورة لـ (رحاب) ..

٢ ـ جهاز هاتف أرضى ، هناك جهاز تغير للصوت موصل بسماعته ، وعندما رفعتُ هذه السماعة وضغطت زر Redial ليعيد طلب آخر رقم ، رن هاتفى المحمول وارتسمت فوقه شفرة الأرقام المكونة من تكرار الثمانية والواحد كثيرًا ، ضغطت زر قبول المكالمة وتحدثت فسمعت الصوت الذى حادثنى به السيد (س) آخر مرة ..

المعنى بوضوح : لم يحادثنى السيد (س) فى هذه المرة ، وإنما كان هذا أنت من جديد يا عزيزى (عارف) ..

تخطيط بارع دون شك ، لكن خطأ واحدًا كان كفيلاً بكشف الباقى ، كما تتساقط صفوف قطع الدومينو المتراصة ..

هكذا ليس من الصعب استنتاج أن من ترك ورقة (إنهم قادمون) بإمضاء السيد (س) على مكتبى كان أنت ، خاصة أنك أتيت لمكتبى قبل أن آتى أنا ، هنا الجزئية الأخيرة ..

الدكتور (عبد المجيد الطويل) الذى لم يكن كذلك !

فى اليوم التالى للقائنا معه ـ الأمس أعنى ـ ذهبتُ إلى منزله مرة أخرى ، لم يكن هناك ولم أجد بوابًا أسأله ، لكن جارك فى الطابق العلوى أخبرنى أن مستأجر الشقة هو أنت ، كنت قد عرضت عليه الصورة بالطبع مما سهّل على الكثير كما ترى ..

ذهبتُ بعدها إلى وزارة الصحة حتى أقطع ما بقى من شك فى نفسى باليقين ، وهناك فى الأرشيف وجدت أن الدكتور (عبد المجيد) قد عمل بالفعل فى الوحدة الصحية بقرية (ميت خميس) فى التاريخ المذكور ، لكنى وجدت أنه قد انتقل إلى رحمة الله ـ تعالى ـ منذ عشر سنوات على الأقل ، مما يعنى أن من قابلته فى شقة (المنيل) لم يكن هو الدكتور (عبد المجيد) بالفعل ، وإنما ممثل يحفظ دوره جيدًا وإن كان أداؤه فى حاجة للصقل والمران ..

هكذا يتضح أنك كنت ترجئ مسألة هذا الطبيب / الممثل إلى مرحلة تالية فى سلسلة التحقيقات التى كنت تمنى نفسك بنشرها فى جريدة (الأربعاء) أسوة بتحقيقاتى مع السيد (س) ، لكن تشكيكى فى مصداقية الحكاية من اللحظة الأولى هو ما جعلك تندفع باللعب بهذه البطاقة التى لم تأخذ وقتها فى الإعداد جيّدًا ..

فى الغالب الدكتور (عبد المجيد) هذا ممثل مغمور ، ربما كان كهلاً بالفعل وربما كان متنكرًا ، لكنك فى كل الأحوال ـ يا عزيزى (عارف) ـ مؤلف جيد وموهوب ، ومخرج متوسط تحتاج إلى التمكن أكثر من أدواتك حتى يخرج العرض أكثر إقناعًا ..

لقد قمت باستغلال الوقت المتبقى لدى بالأمس لأسأل عنك فى كلية الطب حيث تدرس فى السنة النهائية ، سألت عنك فى قسم رعاية الطلاب وحاورت بعض زملائك فى السنة نفسها ، وعرفت أنك مشروع أديب محبط ، طبعت ديوان شعر ومجموعة قصصية على نفقتك لكنها لم تحقق لك الشهرة المنشودة ، ولا المجد السريع ، عرفت أيضًا أنك تمثل على خشبة مسرح الجامعة بلا أمل فى الحصول على مركز متقدم بين المتنافسين ، وعرفت أنك تحرر فى صحف الكلية دون أن ينتبه أحد إلى ما تكتبه إلا فى أضيق الحدود ..

قرأت ديوانك وقصصك بالأمس وهما مبشران لكنك ما تزال فى بداية الطريق يا عزيزى ..

يجب أن تعلم أن هناك دومًا بداية لكل طريق ..

صحيح أننى ـ (نسرين) ـ قد حققت بعض النجاح مبكرًا لكنى أخبرتك من قبل وكنت جادة :

الاستثناءات ليست قواعد ، وأنا لست قاعدة ..

إنها مأساة بالنسبة لك أن تظل فى الظل ..

أعلم ولكن ..

ليس الخداع بالطريقة المثلى نحو إيجاد مكان تحت الشمس ..

ليس اللهاث كذلك أيضًا ..

كل شىء سيأتى فى وقته لو تحلينا بقليل من الصبر ..

وكثير من المثابرة ..

لقد أخبرتنى والدتك أنك قد أضعت إرثك البسيط من والدك ـ رحمه الله ـ فى مطاردة هذا الوهم ، طباعة الكتب ونشرها للحصول على النجاح السريع ، وأعتقد أنك قد

بددت آخر ما تبقى منه فى استئجار الشقق وشراء المعدات حتى تحكم القصة التى تنسجها من حولى ، لتحمل فى النهاية توقيع (س) وتوقيعى ثم توقيعك أنت معنا ..

لقد كانت قصتك الملفقة تترنح على شفا جرف هار ، وقد كشفتها أنت ـ رغم أننى قد كشفتها قبل ذلك بكثير ـ بزلة لسان عفوية ..

انظر الآن أين انتهى كل هذا ، واسأل نفسك :

هل كان الأمر يستحق كل هذا بالفعل ؟!

أعتقد أن الإجابة ـ يا عزيزى ـ أوضح من أن تقال ..

وأعتقد أنه يتوجب عليك إعادة النظر فى حياتك بأسرها ، قبل أن ينهار فى داخلك أعظم ما فى داخل الإنسان ..

الحلم ، والإصرار على تحقيقه ..

* * *

ليس بهذه البساطة

هكذا انتهى كل شىء ..

مالت الشمس نحو الغروب ، وجلست أنا على مقعد الانتظار فى محطة القطار المتداعية فى (ميت خميس) ، أنتظر القطار الذى سوف يقلنى إلى (القاهرة) ، والذى سيظهر فى الأفق بين لحظة وأخرى ..

رغم أن الرحلة ستمضى بلا تحقيق صحفى ـ فالسيد (س) لم يظهر فيها إلا ادعاءً ـ إلا إننى ممتلئة بالسعادة فقد ساهمت فى إعادة شاب محبط يملك بذرة الموهبة مثل (عارف فكار) إلى صوابه قبل أن يورده طموحه المندفع موارد التهلكة ..

لقد بكى الشاب أمامى ، وقد انتبه إلى أنه قد يضر نفسه وأسرته والمحيطين به بما يفعله ، واعترف بصحة استنتاجاتى جميعها طالبًا الصفح ..

أخبرته أننى لست أحاكمه ، وإنما أنبهه فقط إلى ما هو مقبل عليه لو استمر يتحرك دون تفكير ..

كان مصرًا على أن يوصلنى إلى القطار بنفسه ، لكنى أصررت على ألا يظهر معى فى المحطة بمظهره المنهار

هذا ، وطلبت منه فى إلحاح أن يتركنى ويعود إلى داره ، فيقبل يد والدته ويخبرها أنه لن يتصرف بمزيد من الاستهتار ، وطلبت منه أن يمر بمكتبى فى الجريدة لنبحث معًا كيفية الوصول إلى معادلة صحية يبدأ بها حياته الصحفية على ماء أبيض كما يقولون فى المقاهى ..

هكذا عاد ، وهكذا أقف فى انتظار القطار الذى لم يأت بعد ، وهكذا ينتهى كل شىء ..

داعبت أصابعى حقيبة آلة التصوير ، فأخرجتها وعنّ خاطر فى رأسى ..

اتجهت إلى غرفة ناظر المحطة ، طالعنى هناك وجه سمين لشخص بدين يرتدى بذلة العمل الزرقاء وعلى الجيب العلوى حروف ثلاثة مطرزة فى إتقان ..

(س.ح.م) ..

تحية :

ـ مساء الخير ..

بادلنى التحية :

ـ مساء الخير يا آنسة ..

ابتسامة :

ـ أريد ناظر المحطة من فضلك ..

بادلنى الابتسامة :

ـ مرينى ، أى خدمة ..

تتسع ابتسامتى :

ـ كلا .. أريد العم (سيد أحمد) ..

تتلاشى ابتسامته :

ـ رحمه الله !

أصعق :

ـ ماذا ؟! هل مات ؟!

يهز البدين رأسه السمين فى إيجاب أسيان .

ـ .. متى ؟!

يشير بإصبع مكتنز إلى الخارج ..

ـ البارحة عزاؤه هو المنصوب فى البلدة !

ألهث :

ـ لكن ..

لا أكمل إلا فى عقلى : من الذى قابلته فى المحطة منذ قليل ؟!

وكان الجواب بسيطًا ..

(سيد أحمد) ..

(س) ..

السيد (س) ..

لقد كان هنا بجوارى ، لن تمضى رحلتى إذن بلا تحقيق صحفى ..

ما زالت الكلمات تدوى فى أذنى ، رغم الذهول الرهيب الذى يشل كيانى ..

« .. هناك دائمًا أشياء غريبة تحدث فى كل مكان ، المهم أنها تمر دون أن تترك أثرًا كبيرًا ! » ..

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

شخصية غامضة فى مغامرات وأجواء عجيبة

مغامرات س

د. محمد سليمان عبد المالك

إنهم قادمون

بعد أن خططوا لكل شىء ..

بعد أن وضعوا مخططاتهم فى حيز التنفيذ ..

بعد أن انتشروا فى كل مكان وتأكدوا من أن خططهم سائرة على أتم ما يرام ..

بعد كل هذا ، أتى من يكشف كل ما يفعلونه فى الخفاء ..

وجاء من يقاوم أحلام القادمين .. !

مطابع

الثمن فى مصر ٢٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم
(سيناريو)